@ketab_n
Follow Me
26.2.2016

حسن مُطلَك

قُوة الضحك في أُورا

روايــة

الدون كيشوت

حسن مُطلَك

قُوة الضحك في أُورا

روايــة

Twitter: @ketab_n

قُوة الضحك في أُورا

رواية

التوزيع

دار عين الزهور للنشر و التوزيع Email: f-spring-pub@mail.sy

سوريا - اللاذقية - ص . ب 523 تلفاكس . 00963 41 417299

Twitter: @ketab_n

Author:	**المؤلف**:
Hasan Mutlak	حسن مطلك
Title:	**عنوان الكتاب**:
Laughing Strength in Ora	قوة الضحك في أورا
Don Quijote	**الناشر**:
Publishing & Distributing	الدون كيشوت للنشر والتوزيع
First Edition: 2003	**الطبعة الأولى**: 2003
Copyright © Don Quijote	**جميع الحقوق محفوظة**
Cover Artist:	**لوحة الغلاف**:
Abdul Kareem Sadoun	الفنان عبد الكريم سعدون

Don Quijote — **الدون كيشوت**

Publishing & Distributing — للنشر والتوزيع

Damascus - Syria — دمشق- سورية

Mobil: **0096393494875** :جوال

TeleFax:**00963113348400** :تلفاكس

E-mail: dqeditorial@hotmail.com

All rights reserved. No parts of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior permission, in writing, of the publisher.

Twitter: @ketab_n

تـوطِـئـة

لو تعرفون، فقط، مقدار الشقاء الذي عانيته لكتابة هذه الرواية؛ كم من الألم، وإعادة الكتابة، ومحاولات تجميع الشخصيات الغريبة المتنافرة، والسهر الدائم لاصطياد فكرة أو جملة.

أُورا: هو كل مكان لم أرَه، تاريخ مفتعل، بل رقعة ألم تأخذ شكل القبر، لأن المعادل الكلي لما قلت هو الموت المخيف، والرفس، ومحاولة الهرب إلى مكان بلا ذكريات.. وليس (أُرا) إلا ذكريات جارحة كبرت فتحولت إلى كوابيس.

لن أحاول هنا أن أكتب رواية، ولا أريد إرضاء أحد، وربما كانت فكرة إزعاجكم هي الأقرب فيما لو فكرت أحياناً أن أسمح لكم بالإطلاع على ما أكتب، دون أن آخذ بحسابي، طبعاً، أن أسمع مدحاً أو قدحاً؛ لأنني لست بحاجة إلى من يصف بطولتي في مسألة الانتصار على الألم.. فقد كان ذلك رغماً عني. صدقوني لقد اشتغلت بمشقة لكي أنسى أنني أمام تاريخ هائل معقد وذاكرة توشك أن تكون مريضة بالخيال، فوضعت حملاً بوزن الجبل على رأس المُفتَرض (ديّام) الذي هو أنا، كيف أُنكر؟ وآدم هو أنا،

Twitter: @ketab_n

وأوليفر هو أنا... وكلهم، فريق من شخوصي لازموني ليلاً ونهاراً، أيقظوني من نومي لأكتب، ولكن لـــمَـــن؟.. لا أدري.

هناك ذكرى بعيدة منذ أن كنت طالباً في الصف الثاني الابتدائي: شـــهدت رجـــلاً وجد صندوقاً مرمرياً جميلاً وباعه بأربعة دنانير إلى رجل إنكليزي.. آنذاك تعذبتُ.. وما زلت أتعذب.

حسن مطلك

Twitter: @ketab_n

قبل الفيضان

(أقنِعة أُورا)

— ١ —

" سترى اليوم شيئاً عجباً، سترى رجلاً ذا عين زرقاء!".

عليّ أن أعترف أن تلك الجملة قد قلبت حياتي إلى دهشة دائمة، لحظة إطلاقها، وتغير كل فهم لديّ، ذلك أنني لم أكن أتخيل في يوم ما أن العيون يمكن أن تتلون بلون آخر غير الأسود. وانحنى أبي عليّ بشكل مبالغ فيه وهو يضحك ضحكة الواثق بمعرفته بأمور أجهلها.. وأدرت بصري في حوش الدار الذي امتلأ فجأة برجال القرية الذين تجمعوا كاللقالق بمجموعات صغيرة يتحدثون بهمس وبإشارات مبالغ فيها، فقلت ان أحدهم سيعلن عن اكتشاف وفاة غامضة: رجل وامرأة. ومددت يدي لألمس ثوب أبي، لأرى إذا كان قد مات فسبحت كفي في الهواء مرتين، فالتفت بسرعة إلى حيث كان يقف، فشاهدته يبتعد متنقلاً من مجموعة إلى أخرى يحييهم بابتسامة لطيفة.. وتابعته في تنقله وأنا حريص على تفحص أقنعة الوجوه وشكل الابتسامات، وحركات الأيدي والرؤوس..

Twitter: @ketab_n

سمعت صراخاً وضجيجاً في الحشد واستطعت أن أتبين أنه صوت عمي أدهم الحداد. كان عمري آنذاك تسع سنوات، وكان كل شيء بالنسبة الي أكبر من حجمه الحالي بكثير، ولذلك أيضاً فقد كانت الهمسات تشبه الطعنات.. كأنهم يتحدثون عني، كأن مؤامرة تدبر ضدي، كنت أعتقد أن كل شيء يخصني.

وتحرك الرجال وهم مستمرون بالحديث غير أن كلامهم أخذ يرتفع، واستطعت أن أميز بعض الكلمات، مثل كلمة: لعنة الله، سيخرجوننا من سترنا...إلخ. وضاق باب الحوش الخلفي المؤدي إلى الزريبة حيث يوجد ثور أبي العزيز الذي يرعاه أكثر منا جميعاً. اكتظوا عند الباب وتدافعوا. وجاء عمي واقتادني، مارين بطريق القرية الرئيسي، والنساء على الأبواب، ينظرن ويشرن إلى بعض الرجال. بعضهن يحصر قهقهات مكبوتة. وسمعت كلمات مخجلة وجهت من بعض الشباب إلى بعض النساء.

كفي في قبضة عمي الحدّاد، الذي لم يكن أحد من أهل أورا قادراً على مجابهته سوى امرأة واحدة وأخيه آدم، فلا يَسمع كلام أحد غير آدم، أما المرأة فقد جاءت إليه في يوم سالف لشحذ فأسها، وانتظرت عند الباب. كان الولَدان ينظران إلى مقاسها، فوجداها أطول من القياسات التي وضعاها... انتظرت كثيراً لأن الحداد كان مشغولاً بمعالجة قفل.. فنفد صبرها.. ودخلت عليه صارخة به:

Twitter: @ketab_n

أســـرع أيها العجوز. فلم يلتفت إليها وظل يعالج القفل، وكان من عادته أن يتحاشى النساء لإدراكه بأنه لو صفع واحدة منهن صفعة واحـــدة فســـوف يقتلها... واصلت المرأة صراخها، فزاد هو من الضـــغط عـــلى المنفاخ فتأججت النار أكثر، إلا أنه لم يعد يتحملها بعدما قالت: ماذا تظن نفسك أيها الخنزير؟. فتوجه إليها ورفعها من خصـــرها.. ثم رماهـــا عـــلى الأرض. لكـــنها كانت ليّنة بين يديه القويـــتين.. فكَســـرت قلبه، ورفعها ثانية برقة أقل ثم أغلق الباب عليها. سمع أبناؤه دفاعها وصراخها، لكنها همدت فجأة.. وقد كان جسدها يلمع أمام ضوء الجمر.. ومنذ ذلك اليوم وهي أقوى منه.

انفتحـــت أورا أمـــامي. قبضة عمي قوية وخشنة، فكان يرفعني من ذراعـــي بـــنقلة واحدة لكي أجتاز الحفر والصخور. صمت بين حين وآخـــر، يكـــف الـــرجال عن الكلام فلا أسمع سوى صوت أقدامهم وأحذيتهم تحتك بالأرض، وأسمع دحرجة الأحجار.. ورائحة أجسادهم، وصوت أذرعهم تحتك بثيابهم.. وسعال مخنوق، ثم ترتفع الضجة مجدداً، يعلو صوت رجل، وتأتي عبارة:" صاحب العين الزرقاء" لتجعلني أتملص مـــن كف عمي، بصعوبة، الذي لا يفك يدي دون أن يكون منشغلاً بحديث معين، وكانت طريقته بالكلام تشبه المشادّة دائماً.

الأمـــر الهام أنني استطعت أن أخرج عن الصف الطويل للرجال وأمشي على حافة الطريق صعوداً نحو الآثار، إذ تسلقنا التل، فالتفتُ

Twitter: @ketab_n

إلى أورا لأراها تتصاغر وتتقافز مع خطواتي منطوية ونازلة شيئاً فشيئاً ومترلقة مع انحدار التل، وأمامي يبرز المعبد الآشوري حيث بقعتي المفضلة لمراقبة النهر الملتف حول أشجار الصفصاف. وهو مكان أتيح لي أن أذهب إليه منذ أن عدنا إلى أورا من البريّة، كلما سمح لي أبي وأعفاني من رعي الأبقار.

كانت الريح تجري بلا توقف عبر ممرات ضوء الغروب، تمر بردائي الواسع مشبعة بالظواهر الجوية ومتجهة إلى أورا بدون استئذان، فليس ثمة صوت يدل على الحياة في صمت الرجال، سوى: أودعناكم، أودعناكم. والغيم يلامس الحجر، فتظهر في شعاف الدغل أعراف ديكة وطيور ترابية، وثعالب تقطع الطريق بسرعة وذعر مارقة أمام الرجال، ويضج الدغل في المنخفض بأصوات ليس لها حدود، ورفيف حزين لأجنحة النسور التي أضاعت بعض ريشها في حفلة مصارعة وقد التجأت بعد عشرات السنين من النشاط لتموت هنا: بقايا مخلب حفر صخرة.

يستمر الصعود بينما أحرص أن أسبق الرجال وأبي في مقدمتهم لأرتقي مرتفعاً ذا حافة حادة. أرتكز على الطرف، والزمان يعتم فوق أورا حيث يغرق فضاؤها الملامس لسطح الدور بدخان تنانير الخبز، دخان يصطبغ بلون الشمس الغاربة. وابتعدت مسافة تكفي لرؤية حشد الرجال بعين واحدة، عندها اكتشفت فقط أنهم في حالة

Twitter: @ketab_n

تشبه الغضب أصلاً مع أنهم كانوا صامتين، وهي إحدى طرق أهالي أورا في التعبير عن الغضب بواسطة الصمت. هنا وقفت لأول مرة بعدما عدنا إلى أورا في ليلة مقمرة، أراقب المنحدر المفاجئ، حلكة سوداء تنتهي بمنخفض يضم الاهتزاز الرتيب للدغل تحت ضوء القمر، وربما كانت لي وقفة أخرى أسبق في أوقات تعرضت فيها المنطقة إلى قحط شجع آب على الاتساع ليأكل بقية شهور السنة.

لم تكن لي علاقة بما حدث آنذاك لأنني كنت مشغولاً بوضع بُعد آخر لا تقيسه المسطرة لهذا الوجود، وجودي أنا الذي يطمح بنوع من الشوق أن يتحول إلى حادث، وقد سيطر عليّ شعور غريب يتعلق بصورة وجهي المرقع بالكلف الذي أحمله بشجاعة تثير استغراباً لدى الآخرين أكثر مما لو نظرت في المرآة، ولكن استغرابي كان يتجه نحو مراقبة حريق داخلي يتواءم مع بعض الإحساس بالتعب والقوة معاً؛ من أنني عشتُ حيوات عديدة قبل أن أوجد هنا، مع الحشد الصاعد نحو مركز الخرائب الأثرية. وكان ذلك الإحساس يشتد كلما أتيح لي أن أزور مكاني المفضل على سطح المعبد وأجيل بصري على الركام قبل أن يسحبه التفاف النهر. ذلك الجزء الوحيد الحي في أورا. ولم يكن قد خطر ببالي آنذاك ــ إذا ما حصرت الفكرة في شكل وجهي المرقع الذي أحمله أينما ذهبت ــ انني سأخسر اللذة الاجتماعية للزواج فقد اقترن شكل وجهي

Twitter: @ketab_n

بـــتاريخ المـــنطقة وآثارها المعراة تحت هجوم العوامل المناخية عبر العصـــور.. لكـــنني استعضت عن ذلك بكسب رحمة وسلام بعض الأماكن: النوم الهادئ بين صخرتين قرب النهر، حيث استيقظ على صـــراخ بعض النسور:زو... زو... زو.. عبر الهواء والنهر، وعبر أورا نحو البرية. رأيت الرجال من مكاني المرتفع يلتفون حول الزاوية الباقية من هيكل المعبد كسرب من النمل الأبيض، وقلت: ان الآثار ستأكلهم، وإذا ما اختفى آخر رجل خلف الزاوية لأواجه تلك التي يتحدثون عنها: العين الزرقاء..

وقـــد حرصـــت، منذ أن عدنا إلى أورا من البرية، أن أتآلف مع المكـــان مـــع أنه مسكون بعظام آلاف الجنود تلك التي يستخرجها سيل المطر، والجماجم المتدحرجة مع التل.. فهبطت بسرعة مغمض العينين أحياناً حتى وجدت أني قد لحقت بآخر رجل عند الزاوية.

توقـــف أبي عـــند المكـــان الـــذي يقول عنه عندما يفخر وهو مضـــطجع:" جلست فوق دكة العرش". ولا أدري ما علاقة التلذذ بالسيجارة ودعوة ديامة أن تفرك قدميه وهو يتحدث بطريقة تشبه صوت الرمح المنغرس في الأرض ببطء أو أية طريقة تجوز معها فكرة التعامد على الأرض: الكبرياء. أيعتقد أنه شلمنصر الآشوري؟. يرفع ركبته اليمنى وهو مضطجع ويرمي ذراعه اليمنى الممسكة بسيجارة بنوع من الإهمال أو الاسترخاء وينفخ الدخان على وجهي فيفصلنا

Twitter: @ketab_n

الضباب وتضيع تجاعيده ويصير وجهه بلا حافات محددة.

الرجال يتحلقون حول دكة العرش فأجد لي طريقاً بين سيقانهم ثم أصطدم بحافة الدكة، أرفع بصري: فأرى عينين زرقاوين جاحظتين تحت ظلال القبعة:" أنا أوليفر الإنكليزي، قاهر الخرائب". على رأسه صوف النعاج، فأشك أنه يستطيع أن يبصر عبر العينين الزرقاوين الجاحظتين، يرانا بلون أزرق.. أنا والرجال، نختلط بلون السماء، ويصرخ:" من الذي تغوط هنا؟.. هنا فوق دكة العرش.. أخبروني؟". بلغة عربية ركيكة. يدور حول نحافته ويعدل قبعته المنسجمة تماماً مع شعره الصوفي وعينيه الزرقاوين، وصوته المزدوج، كشيء عديم الأهمية. فكنت أبتسم كلما ازداد صراخه وهو يشير بإصبعه إلى الغائط المكوّم بطريقة لولبية فوق منتصف دكة العرش:" هذا تجاوز.. استهتار.. خراب". والرجال صامتون، بينما يحاول أبي أن يمد يديه ليشرح له فيضربه على كفه ويقاطعه.. ولكن أبي يضغط بقوة على كلماته ليعتذر دون أن يسيء الأدب أمام مديره، فتنفجر كلماته انفجاراً:" إهدأ يا مستر.. لا أعتقد أن أحداً من أورا يفعل هذا.." مستر آدم.." بل أرجوك أن تسمعني يا مستر أوليفر، فربما فعل ذلك رجل غريب.." ويقاطعه:" مستر آدم تحدث عن نفسك.". ويرتفع صوت عمي وهو يزيح الرجال بقوة عضلاته التي رباها بطَرق الحديد، وعندما يثور عمي لا يستطيع أحد إيقافه سوى

Twitter: @ketab_n

أبي، فقـــد صنع لنفسه ممراً بين الأجساد بحركة واحدة من ذراعيه، وقـــد اجتنـــبه الجمـــيع، وهو يزمجر في وجه أوليفر:" أتعتقد أنك ستضحك علينا في هذا الغروب.. جمعت لحى القرية لتتهمها بالتغوط هـــنا". ورفـــع كفـــه القوية ليسحق الإنكليزي، غير أن ذراع أبي اســـتقبلتها، بينما قفز أوليفر على حائط منخفض من اللبن، ولم يعد يتكـــلم، وارتفع احتجاج الرجال، فوعدهم أبي بأنه سيسوي الأمر، فـــأداروا وجوههم منحدرين نحو أورا، يهدئون عمي آدهم ويربتون على كتفيه، ويقبلونه..

يجـــب أن أعـــترف بأن المشادة لم تكن مثيرة بالنسبة لي بقدر ما كنـــت مندهشاً بشكل أوليفر الشبيه بجذور الجزر، وبالأخص بعينيه الـــزرقاوين الصافيتين، بل بقبعته ذات الحافات اللينة، وظللت أنظر إلـــيه هكـــذا، وأنا قريب من حافة العرش، أتلقى دفعات الرجال، وكانـــت عيناه الزرقاوان تسقطان عليّ أحياناً، فيتوقف عن الصياح لينظر إليّ، ولم أكن أشعر بالخوف.. بالعكس لقد كنت أبتسم، فيعود إلى الصـــراخ ويهز رأسه أكثر مما يهز يديه، ثم يعود للنظر إليّ كأنه يأخذ رأيي فيما يقول. عندما اختفى آخر رجل خلف الزاوية الباقية للمعـــبد حيث ينعطف الطريق فجأة ليزل بين التلال، بقيت أنقل بصـــري بين قبعة أوليفر وعينيه الزرقاوين، فابتسم لي، وقال لأبي:" ابـــنك..؟ **What is his name..**؟" فأجـــاب أبي على الفور:

Twitter: @ketab_n

ديّام. لفظ اسمي بنفاد صبر ثم انفجر بوجه أوليفر: ولكن الذي فعلته إهانـــة للرجال.. أقصد.. is offensive.. فرد أوليفر: إنسَ آدم، إنسَ.. فصاح أبي: ولكن كيف بالله.. سأواجههم؟.

ولا أدري كـــيف أن أوليفر قد عاد إلى هدوئه بهذه السرعة. مد يـــده إلى حقيبته اليدوية وأخرج علبة معدنية، فتحها فخرجت منها رغوة ذهبية وأخذ يلحس الرغوة. نكّس العلبة إلى فمه وشربها دفعة واحدة ثم رماها في أخدود، فسمعت رنين تدحرجها. التمعت العينان الزرقاوان، وراح يضحك بقوة. شعرت بأنه يضحك ضدي، فانتبه إلى حد ما بأنني قد خجلت من ضحكته. انتزع قبعته ووضعها على رأســـي. لم يكن أطول مني. ساعدني لبّاد حافاتها الواسعة اللينة أن أتجـــاوز بعـــض الخجل وأنا أراقبه يرقص على الصخور وهو يغني بصـــوت لم أسمـــع أقـــبح منه. كانت الصورة أكثر غموضاً بعينين زرقاوين ومرح؟.. كيف هذا؟.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

— ٢ —

لا نعـــرف مـــا إذا كان الصباح قد بدا فعلاً؛ فلا شيء محدداً في أورا، خصوصـــاً الزمن، حتى أن المرء لا يعرف في أي عصر يعيش طالمـــا أنه محاط على الدوام بحطام مملكة آشور. ذلك ما لاحظته؛ أنا الضـــئيل تحت القبعة التي غاص رأسي فيها... ظلالي على الجدران كأني أحمل زُحل على رأسي، وصباح أورا يكشف عني ظلاً متكسراً في زوايا أسس الحيطان المبنية باللبن المفخور المسروق من المملكة.

كنـــت أتـــلمس صوف النعجتين اللتين أدفعهما أمامي دفعاً كي أوصـــل ديّامة إلى المرعى، فالدور عليها في الرعي هذا اليوم؛ وهذا يتيح لي أن أرى أورا كلها من تحت حافة القبعة. وأعرف لأول مرة؛ لمـــاذا كـــان أوليفر يكفر.. ألأنه لم يكن يرى السماء أبداً طالما أنها محجوبة بحافات القبعة؟.

ديامـــة تمشـــي إلى جـــانبي. لم أرَ بنتاً في أورا أجمل منها في تلك الـــلحظة. فجأة تفتق خياط الثوب بحجم جسدها الجديد واستدارته المتكورة، كنت أخجل من مواصلة التحديق بها. كان عليها أن تصد عـــنها نظرايّ بنظرة مقابلة، ولكنني لاحظت الاستسلام فيها لأول مـــرة. صوف النعجة أمام الصباح، شَعر أوليفر، زرقة السماء....

Twitter: @ketab_n

عيـــناه... وأوصـــلتها إلى أطراف منخفضات الرعي وسط الدغل بصعوبة؛ تخدشت أجزاؤنا الظاهرة. رأيت صبياً قد سبقها إلى هناك بـــبقراته فاستدرت بسرعة لأنني أخاف أن أكون في الدغل وحدي، وسمعته ينادي، فتوقفت دون أن ألتفت: ديّامة، لقد نصبت العصا.. أسرعي. وقلت انهما سيلعبان لعبة غرس العصا، تلك اللعبة التي لا أحـــبها. تحركت بسرعة فضرب أحد الأغصان قبعتي، وصرخت:" هـــات قبعتي". نادتني ديامة: هل جُرحت يا ديّام. فأجبتها: لا، انها القـــبعة شمطها الغصن. ثم مشيت بسرعة وأنا أسمع انسحاق يابس الدغـــل على الجانبين. حاولت أن أركض، غير أن قدمي قد رُبطت بحـــبل، فسقطت على الأرض واتسخت قبعتي، نظرت إلى الحبل في قدمي والدغل يضحك حولي. برز الولَدان: مُطلق وياسين ــ صيادا الخـــنازير ــ بجثتيهما الخنزيريتين. أخذا يشيران نحوي ويضحكان: حسبناك خنزيراً.. ما هذه القبعة؟ لقد سرقتها من الإنكليزي. أنت سرقتها من المستر أوليفر. فقلت: ابتعدا عني.. هو الذي أعطاها لي.

فلـــتُ ساقي من الحبل، وانطلقت أجري بحرارة وهما يسبقاني في الجـــري مرة، ثم أسبقهما بسبب الخوف. لا أحد يجيد الركض مثلهما في الدغـــل؛ فقد اعتادا عليه، ولا يخافانه. انهما مولعان بصيد الخنازير الـــبرية والعبث بها، قلت لنفسي بأنني لو اجتزت الدغل إلى الأرض الجـــرداء لمـــا اســـتطاع أحدهما اللحاق بي، وتمسكت بالقبعة أكثر

Twitter: @ketab_n

فوجدت أن ضحكاتهما قد ابتعدت، ووجدتني أركض في الطريق على حافة مجرى مياه الغسيل، منخفض صغير.. وصعدت المرتفع بصعوبة بالغة. كانت هناك جدتي. رأت ظلي على الباب فقالت على الفور: ديام تعال يا ولدي. احتضنتني ثم أضافت: فيك رائحة دم... دفعتني برفق متفحصة قامتي وصاحت: ما الذي خدشك هكذا..؟ فقلت: أبناء عمي أدهم. نهضت بخفة، وأخذت طاسة من الماء الدافئ، غمست فيها قطعة قماش وعصرتها. بدأت تمسح كدماتي وخدوشي.. ثم قامت، وهي تقول: تعال لنرى؛ ما إذا كانت الدجاجة قد وضعت بيضة هذا اليوم. ذهبنا إلى الكوخ، فوجدنا بيضة مرمية على التبن. قفزت إليها قبل جدتي وهتفت: إنها حارة يا جدتي. فأجابت: لأنها جديدة. وضحكت جدتي لأنني كنت مسروراً وهي تراني أضع البيضة في القبعة، واسبقها إلى البيت. شرعت أبحث عن العجين ثم أحضرته لها وقد جلست قرب الموقد تنضج البيضة.. وتحتاج البيضة إلى وقت طويل كي تنضج بهذه الطريقة؛ لأن النار في الموقد خابية ولم يبق إلا الرماد السفلي دافئاً. ولأجل ذلك كانت تقضي على قلق الانتظار لديّ بأن تروي لي الحكايات نفسها. كانت تتمتع بذاكرة عجيبة. أدركتُ ذلك من خلال معرفتها بتفاصيل دقيقة ومتشعبة. قالت: ولكن اسمع.. ما هذا المغسل الذي تضعه على رأسك؟ وضحكت.

قصت لها حكاية القبعة والرجل ذي العين الزرقاء. فلم

Twitter: @ketab_n

تصـــدقني؛ قالت: صحيح أنني سمعت عن مثل هذه العيون ولكني لم أصـــادف عيناً زرقاء واحدة، فلابد أن يكون هذا جنيّاً. قلت: انه يتكـــلم مثلنا. قالت: الجن يتكلم. قلت: ويغني. قالت: الجني يغني. قلـــت: يلبس سروالاً غريباً. قالت: ألم أقل لك؟. قلت: شعره من الصـــوف. قالـــت: تمام؛ انه الجني بعينه. قلت: وهل رأيت الجن يا جـــدتي؟. قالـــت: لا.. سمعت عنه. قلت: لكن هذا يُرى وله زوجة وبيت، ثم انه كان مترعجاً من الغائط. قالت: لا أعرف. قلت: إذاً أنتِ لا تعرفين إذا كان من البشر أو الجن... صمتت وتناولت العصا لتقلـــب الموقد، فسمعنا البيضة تنفجر. غرست العصا وأخرجتها. نفضت عنها الرماد وقشرتها لي، قائلة: انتظرها لتبرد. فرفعت القبعة ووضعتها، بينما غاصت جدتي في عتمة الكوخ الطويل. سمعت بعض طرقعة الأواني فناديتها: ماذا تفعلين؟. قالت: أبحث عن الملح. قلت: لا أحب الملح هذه المرة لأنني سمعت بأن أوليفر لا يحب الملح.

كانت ديّامة تلعب مع ذلك الصبي في المنخفض. وكانا يجريان من هنا إلى هناك؛ يغرسان العصا، ويضربانها بعصي أخرى... حين انتهيا من اللعب ساقا نعاجهما إلى غدير الماء ووضعا رأسيهما قرب رؤوس الـــنعاج ليشربا منبطحين، فسمعت ديامة صرخة هائلة لطائر فوق رأســـها، وشـــعرت في اللحظة، عندما كانت أصابع الولد تلامس أصـــابعها فـــوق طراوة الطين.. شعرت بألم حاد في أسفل البطن.

Twitter: @ketab_n

نهضت مفزوعة كي تنظر إلى الطائر الذي صرخ فلم تبصره، وأصيبت بارتجاف وخوف مصحوب بالألم. بدأت تفقد توازنها. اصفرّ وجهها، تيبست شفتاها، فنظر إليها الصبي منذهلاً وهي تقول: إني أتألم هنا. ووضعت يديها على ظهرها، فقال لها الصبي: سأسوق نعجتيك حتى نهاية الدغل.

حين وصلت البيت وجدت بعض قطرات الدم قد سالت على فخذيها فأصابها الرعب؛ دم أسود. وضعت النعجتين في الحظيرة وأغلقت على نفسها الباب.

خرجتُ من باب كوخ جدتي، أنظر باتجاه المعبد الآشوري، فأن أحلم منذ أن عدنا إلى أورا أن أصعد فوقه ثم أهوي بنداء من القاع شرط أن أستمر محلقاً ولا أصطدم بشيء معين، مغمض العينين في سقوط حُر، يخلصني من كل تأمل، ومن كل تطلع ومن حاجة ومُلكية.

سقوط عبر الصورة التي رسمتها لي جدتي مراراً ببساطة متناهية، ومبرّرة عن تاريخ أورا.. أسقط في هواء التاريخ مضيعاً اتجاه الأرض طول شهر آب المطلق. أسبح بحرية في الفاصل الزماني كما حدث بالنسبة لأورا حين سقطت على رأس أحد صيادي الأسماك، فلم تتحطم بشكل كلي؛ حيث انغرست بيوتها في رمل الحافات اللدن. وحين أفاق المتبقون من أهلها، المغضوب عليهم، بعد هول الصدمة، وجدوا أنفسهم في ترتيب جديد؛ فأما أنهم نبتوا من أنقاض مملكة آشور ذات المجد الذي

Twitter: @ketab_n

لامـــس آفـــاق الأرض، أو أنهم سقطوا هكذا، كما تروي جدتي، وقد غـــرق الكـــثيرون فحمـــلهم النهر إلى فم البحر بمنزلة طعام للقروش والمسننات المرجانية.. وتحول القسم الآخر إلى طين.

كـــان ذلـــك في شهر آب المطلق، حين كانت السنة مقسمة إلى قســـمين متساويين: قبل منتصف آب، وبعد منتصف آب. ولم يكن أحد قد فكر باختراع الشهور المعروفة، خاصة شهر شباط المتقلب، حـــين تم اخـــتراع الملعقة والحذاء لأول مرة. أطلت نوافذها على الترتيـــب المتـــناقض لمظاهـــر الطبيعة التي أصبحت مألوفة بتقادم السنوات: صخور مشاكسة كمشهد متحجر لمعركة هراوات.. أما الـــنهر فمرآة محطمة فوق إسفلت... وشهقة من فقد الذاكرة وبدأ يتعرف على الدنيا من جديد.. هكذا كان حال المصدومين؛ لا أحد يعرف من أين جاء وإلى أين سيمضي، سوى أن النار لم تزل تتنفس بين أثافي طبيخ اليرابيع ذات الجلود المسلوخة حتى فرشاة الذيل.

في تلـــك العزلة صعدت الشفقة من جوف رجل واحد.. صعوداً تدريجياً، شفافة مغمسة بالشعور الطبيعي الذي يعقب نهاية الكارثة... أمـــا الباقون فقد صارت تسليتهم الوحيدة مراقبة النسور في طيرانها المحلق حيث ملتقى الشيوخ منها استعداداً لسن اليأس.

دهوث هو الرجل الوحيد، دهوث، جدنا الأول، لم يفقد ذاكرته كلـــياً لأنه سقط على كومة تبن. وسمع صوتاً رهيباً في الهواء:" قُم

Twitter: @ketab_n

وعـــلم شعبك الحياة". بينما يتابع الشعب طيران النسور عبر مزق النوافذ من طرف إلى طرف.

اهـــتدى دلهـــوث إلى الكلمات، وكانت العربية أولى الكلمات، فســـمى الـــبقرة بقرة والحمار حماراً، والنهر نهراً، والمنجل والقطاة والحـــذاء والشـــوكة والخيط والعصا والمعول والصخرة والإصبع والعلـــبة والزهـــرة والـــنعجة والشاطئ واللحية والرمل والفانوس والقوقعـــة والرداء وحجر الرحى وحجر الجلوس والوحل والبرية، وكـــلمة لهب وماما وبابا وسليمان ودَلَس ومراد وناصربال وداثان ووردون والفأس والمشط والقلم والشمال والشرق وعطارد وخاتم الزواج وديامة المترسبة في قعر الغرفة كالغرين المترسب في قعر النهر. ألم تقـــل جـــدتي أن دلهوث قال:" كلكم أبنائي فما الذي جعلكم تنقســـمون إلى عشائر وأنتم من ظهري؟". صحيح انه قسم الأشياء حسب أشكالها وصفاتها فعزلها عن الأشياء الأخرى للتمييز ثم قسمها من جديد حسب فوائدها وأهميتها وأعطاها صفات للمذاق في الحلو والمـــالح والمـــر والحامض. وصفات للمس الخشن والناعم والدبق والـــبارد، وصـــفات للبصـــر؛ الجميل والقبيح والأحمر والأخضر والأســـود واللامع والمعتم وما بين بين، وصفات للمسمع كالرنين والعـــزف والـــزئير، وأخرى للشم، ثم قسمها إلى فصائل ونوعيات حســـب اقترابها في التشابه وبذلك تعلم العد والحساب، وظل يميز

Twitter: @ketab_n

ويفحص ويستنتج، ثم يعطي النتائج لقطيع الأطفال الكبار بالتقليد أولاً: علمهم الطبخ وصيد السمك والحراثة خلف الصخور والبذار وصناعة الأحذية والفخاخ والحلي والمناجل من بقايا نحاس الكارثة.

كان بيت جدتي يشرف على القسم الجنوبي من أورا، جنوب الطريق المنصّف لها. وكنت، غالباً، أحب الاستناد إلى سياج الحطب الذي صنعه جدي. أتأمل أدخنة البيوت والمسرعين عبر الأزقة، ومنظر خطوط الأصابع في ملاط الجدران الجصي. بينما تروح جدتي وتجيء في حركة دائبة وسط الحوش ترعى دجاجاتها باهتمام بالغ، وكلما مرت بي ورأتني أنظر إلى جهة معينة كلمتني عن تلك الجهة. إنها لا تكف أبداً عن الكلام ورواية الأحاديث، فهي تعرف تاريخ الناس هنا بالتفصيل. إنها.. كتاب أورا وبموتها؛ لا نعود نعرف شيئاً أبداً عن أي شيء.. بموتها لا أحد سيفسر لي معنى الجدران الواقفة في كل اتجاه.

كان أوليفر يفكر بموضوع الغائط. يناقش الأمر مع زوجته التي تسخر منه وهي سكرانة، فيخرج غاضباً إلى العمل في الخرائب ملتقياً هناك بعامله آدم الذي انتهى الآن من إعادة ثوره إلى الزريبة بعد أن طاف به فجر المراعي. أعطى أوليفر أوامره لآدم بالحفر وظل يفكر بالكيفية التي يجعل فيها الناس تتغوط في حفر خاصة حتى انتهى النهار وعاد آدم إلى بيته. وعاد ديّام. بينما تسجن ديّامة نفسها في الغرفة خجِلة من العادة الشهرية.. خجِلة من أهلها كأنها ارتكبت جرماً.

Twitter: @ketab_n

— ٣ —

اغتنمتُ فرصة ظهور جزء من الشمس بين غيمتين، بعدما ظل المطر يسقط بدون انقطاع، فما أن وضعت قدمي على العتبة، وبدأت السماء تمطـــر مـــن جديد، فعللت لأمي عدم خروجي بسبب المطر، غير أنني كنت خائفاً أن ثمة جمجمة تتدحرج في حوشنا. كان ذلك قبل أن ألتجئ إلى سطح المعبد فتحملني يد لا مرئية وتمنحني المكان كأحد جسمي. في الوقت الذي بدأ فيه النهر يخطو فوق الطين الرخراخ، والفضاء كجيب شـــفاف مخيّط بالأفق. الماء يلامس السماء، والضوء أكثر حدة مما كان؛ ينـــتفش ويتلون ثم يتحول إلى شيء مذاب في الماء. الضوء منثور وممزق عـــلى الأشـــجار المضطربة. وبعد ذلك. ثمة صمت، في لحظات توقف المطر. لم يكن قد وجد أي شيء سوى النهر؛ لا الدغل ولا منخفضات الرعي ولا الوديان. هسيس الغرين والأحجار ذات المقاومة والالتصاق الضـــعيف. صـــمت كوني شامل... تستيقظ أورا بصرخة ملأت أنحاء المكـــان على مشهد مروع لجماجم تتدحرج وعظام آدمية في الطرقات وأفنية البيوت غير المحميّة بأسيجة من جهة الآثار بما في ذلك بيتنا الذي كـــان نصـــيبه ثماني جماجم. تحرك الخلق بهول عظيم، واستعاد الجميع ذكـــريات أورا المحكية عن زمن أول كارثة حلت بها، حين وقعت من

Twitter: @ketab_n

السماء عبر السحب الخضراء المتجلدة على رأس أحد صيادي الأسماك. فلم تتحكم بشكل كلي لأن بعض بيوتها قد انغرست في رمل الحافات اللدن. افتح عيني على ذكرى مشهد رأيته في تاريخ أورا قبل أن أولد، ثم انقـــاد مباشرة إلى لحظة تأمل تبدأ من حافة؛ الحافة نفسها التي وقفت عليها لأرى رجال أورا يتجمعون لرؤية غائط على دكة العرش؛ هي في الأصل لحظة تذكر؛ بمساعدة حكايات جدتي والبيض الملفوف بالعجين، تكشف عن تحجر البصر في نقطة ما في حركة الموج الهائل، بمنزلة عينة للـــنهر كله، إضافة إلى جهد الخيال للتخلص من صدمة تاريخية تحوّلت تدريجياً إلى تجسيد في: أنا روح تاريخية. مخافة أن أتحول بشكل كلي إلى مـــلاك، ذلك أنني حاولت أن أفهم وصايا جدنا الأعلى دلهوث الذي يـــرى بـــأن الإنسان يكون إنساناً عندما يخطئ، أما الذي لا يخطئ من البشر فيكف له أن يكون إنساناً ويصعد إلى مرتبة الملائكة. وصار الخطأ هو المبدأ الذي يسير عليه شعب أورا، وصار الخطأ هو الهدف. غير أن دلهـــوث قـــد كتب لنا في أحد الألواح: ولِدت أورا لحظة تدميرها.. وسوف تولد في لحظات الأزمة مرات ومرات، ويعمل أبناؤها المستحيل في أزمنة التهديد إلى أبد الآبدين... آمين.

لقـــد جئت مسلحاً بيقين الانتباه والغفوة معاً، حاضر في منطقة الظـــل، هنا... وهناك، حين تحضرني المشكلة لتجعلني خشن الطبع، أتمـــتع بوجودي الحار لحظة الغضب، من غير أن أعد أحداً بالذبح

Twitter: @ketab_n

كما هي العادة المتعبة هنا، والتي لا تُنفذ أبداً.

النهر يخطو فيتحول بالتدريج إلى بحر يلامس مخالب النسور فتختار منطقة أعلى بحركة تعاقبية. تراقبني بحذر وتنصت إلى هسيس الغرين فحسب، بل إلى حركة مفاجئة لفأر طفر من حافة الماء بعد أن امتلأ جحره..

انحدرت المياه من منطقتيّ (البازل) و (البغاز)، وأشرف الضوء على الذبول أمام سعة الماء وضيق الجزر المتبقية، والاكتئاب الذي أعقبه تسلق؛ رواح ومجيء على تدرجات المعبد، وحيداً مع أوليفر الذي لم يكن وحده الخائف من أن ينجرف المعبد مع تيار الماء.. لعل خوفه كان مهنيّاً، ليس كخوفي، فقد خفت أن لا أوجد هنا بعد الآن.. كنجمة تهوي في أعماقي، في الماء وتنطفئ. حلمت بقارب يهبط من السماء، ثم راقبت بألم حركة اليعاسيب والديدان الهاربة.. وأورا التي أصبحت أكثر قيمة وأصغر حجماً مما كانت عليه.

أكلت المياه الجروف الرملية المثقبة بأوكار السنونو وعروق الشوك. جُرف (البغاز) المحروس بشيخ يلعب بالنائمين ولا سيما الرعاة الذين يعودون محتمين بأغنامهم بعد أن سلب منهم ملابسهم، شلّحهم وأتبعهم بضحكة مُعريّة، ضحكة الروح الظريفة: واحد من الجن أو واحد آشوري كُتب عليه أن يعمر في الموت ليشهد.

اكتشف أحدهم طريقة القفز بالزانة لعبور ألسن المنخفضات.

Twitter: @ketab_n

وعاثت الأسماك العمياء تهشيماً بحركة زعانفها في الحقول.. أما الثيران فقد احتمت بمرتفعات جزر الحقول؛ لمسة من الشمس تعد أضلاعها.

قالت أمي:" سيذبحك أبوك ". فعلاً أراد أن يذبحني، ولكنه غير رأيه مستبدلاً السكين بنظرة جارحة.

وقفنا على الشاطئ المتنقل نطرق الأوتاد لربط الماء، فقال جدي:" أنا قبر ". وقال:" الماء لا يمكن ربطه، إننا نقيس بالأوتاد حركة الفيضان فقط ".

انتزعت الأعمدة والتهبت المشاعل بأضوائها.. تحطمت الأرض الفسيحة كما تتحطم الجرة، وظلت زوابع الرياح الجنوبية تهب يوماً كاملاً." خار عباب الطوفان كالثور الوحشي. واستسلمت الأشياء للهلاك. ملأت النهر كأنها اليعاسيب. صارت كالأرماث الطائفة في النهر (شاهدتهم وبكيت)". بلغ الماء حافة السماء، فرفعنا أيدينا إلى الماء ثم تراجعنا خطوة، نرفع أيدينا، تراجعنا خطوتين، فصرخت أمي:" ويلي.. سنتحول إلى طين ". كلما وقفنا على مسافة ذراع جاءنا الماء فتراجعنا مقتربين من ظلال البيوت والأفنية المسيّجة بالأحطاب مخافة تسلل الدجاج إلى الغرق.. لم نزل نطرق الأوتاد.. وأخيراً كففنا حين رأينا شيئاً أسود طافياً وممدداً على السطح اللامع المجعد بالموج مقابل جهة هبوب الريح الجنوبية التي حملت رائحة نقيع الأخشاب والنعناع، وهيّجت فوران الفقاعات التي تنفجر بلا

Twitter: @ketab_n

صوت، فقلنا أنه تنفس الجن في شقوق الأرض.

أتـــيح لنا أن نفرح بالنهر فردتنا وجوه آبائنا وأمهاتنا إلى نذير لا نعـــرفه.. كمســـحة ســـخامية من الهلاك. أبصرنا تجاعيد جديدة ووميضات مؤسية في عيون الواقفين على الحافات غير المنتظمة، حين شـــاهدوا الغـــريق ممدداً على سطح الماء اللامع، فقال جدي:" إنها فقاقيع القحط والله ". مرت الجنازة بسلام بين المويجات، و(الحمدلله) ان أحداً لم يغرق بعد من أهالي أورا.

ضـــاعت الســـواقي وألواح السقي، وطفت براميل أدهم، وبساتين عنـــب ضـــرع المعزى والآبار المحاطة بأسنان الحجر وظلال الصفصاف القطـــني حيث مضت القيلولة وسط النمل المعطر. نسحق نملة صغيرة ونشـــم الـــرائحة المخلوطة بالغروب والذكريات الفارّة كأشياء نحبها وننساها.. فمتى كانت أورا بلا نعناع ذي أجراس حمراء بنفسجية تغري بالبقاء والنوم على حافة الساقية حيث سقسقة الماء في القنطرة المخنوقة الضـــائعة تحت النعناع أيام القحط، وغناء اليعاسيب تحت النعناع. بقعة خضراء تمتد بحدود نثار سَقطة أورا... وبعدها بريّة خراب.

مالت الأشجار التي أمسكت صندوقاً طافياً مع التيار الطيني المزبد حـــين قال جدي:" أنا قبر ". لعق الماء أحجار الزوايا وخرّب ثقوب الفئران، وطفت الفئران على ظهورها تمد أيديها نحو السماء وتتراجع.

رحلـــت القِدور. رحل الغريق أخيراً بلا بكاء. ما لاحظته فقط:

Twitter: @ketab_n

انهـــم شـــفطوا دماء وجوههم. كانت يداه ممدودتين نحو السماء، ينســـاب وقد مشط الماء شعره بعكس اتجاه الجسد، فقالت أمي: لا بد أنه تزحلق، ابتعد يا ديام.

بكى جدي أمام المشهد، أعرفه، يبكي حين يجب أن ينشغل بشيء آخـــر. ثمة لحظة من الغموض نسيتها، معبأة أو منثورة، والأمر الهام انهـــا وصـــلتني بشكلها المنحرف قليلاً عن الصورة الأصلية، وربما كانت الصورة أكثر زيفاً مما اعتقدت آنذاك، لأن الغموض يكمن في شكل آخر من أشكال الوقوع: جدي وهو يترع رداءه، بينما أتذكر لأول مـــرة أنـــني لمســـت طرف القبعة التي منحها لي أوليفر حين اصطحبني أبي لمشاهدة عينيه الزرقاوين.

بـــدأت الأشياء، بما في ذلك الحيطان، تتعاطف مع البحر الجديد وترحل محمّلة بصورة فقاقيع القحط، أو تنفس الجان؛ تكبر وتنفجر. التقطتُ القدر والمقشة وقبقاب أمي. التقطت.. آب الدائم المعروف بكوارثه، حتى أن المستر أوليفر قال لأبي ذات مرة: لا يوجد سوى فصلين في بلادكم؛ صيف حار جداً وشتاء بارد جداً، ولذلك فأنتم طيبون متسامحون، قساة غلاظ في آن واحد. وظل أبي يضحك لهذا التشـــخيص الظـــريف، ويضحك كلما تذكره. قلت انه تشخيص صـــحيح إلى حد ما، ولكن المستر قد نسي قوة الفيضان وما تحمله حركة المد من توتر، وحركة الجَزر من راحة، وقلت فيما بعد: انهم

Twitter: @ketab_n

يفهمون التاريخ على أنه سجل لأحداث، ولا يعرفون أن التاريخ هو أنا، وأنه طفولة عشتها قبل أن أولد.. ان السر يكمن في هذا الحزن الرافديّني. التاريخ هو جزء من حياتي، فمازلت أؤدي التحية نفسها التي كان يؤديها آشور ناصربال.. ومازالت فكرة الشر قائمة، وفكرة الخلاص من الشر. أيها المستر أوليفر، وأنت يا آدم الذي تبحث عن عظام آشور بانيبال وحطام العجلات.. وقلت أخيراً لقد اهتدى إلى طريقة للحصول على الخبز.

جاء الليل فابتلت الأغطية وقاعدة الفانوس، والحشرات التي جاءت مع الفيضان.. أخرجها الفيضان من جحورها لتدور حول الفانوس. نفرتُ من البرودة: ما هذه البرودة يا أمي.. أدد، أدد، أدد... قالت: وما أدد؟. قلت: لا أدري.. انني أتأفأف. كان وجهي مرقعاً بالكَلَف، أما وجه أبي فكان غائباً في مكان ما. لقد بدأ يغير بعض عاداته، ويقضي بعض الوقت عند السيد أوليفر؛ فلم يعد يمد ساقيه حين يجلس، وبدأ يتصرف كغريب بعد رحلة جوع امتدت عشر سنين. يقف لساعة أو أكثر تحت سقف الحُصران والضوء أزرق مهشم على وجهه الدائري. تحت السقف، من هذه الجهة وتلك الجهة، ويطلب معولاً. يقول: المعّول. ويحيط بدنه بحزام. لم يكن حينها قد صنع لنفسه كرشاً صغيراً، متجنباً طعام أوليفر مخافة أن يعثر على قطعة من لحم الخنزير، باستثناء حادثة معجون الأسنان الذي لحسه

Twitter: @ketab_n

معـــتقداً انه عصير النعناع، نعناع الأجراس على حافة الساقية دائمة الجـــريان لســـقي البطيخ الذي تجلبه أمي بعباءتها من الحقل، غير أن الديـــدان لم تـــدع لي مجالاً للشبع فكانت تأكل ما أرسله إلى بطني. دخلـــتني الديدان منذ أن لبست قبعة أوليفر، فكنت أذهب إلى جدتي كي تستخرجه وهي تفتح إليتيّ على ضوء الفانوس وتغرس أصابعها في مؤخـــرتي ملتقطة دويدات بيضاء وناعمة كالخيطان، لذا فقد صرت هزيلاً تحت القبعة. وأحك. أحك. أحك، على حافة هدير الماء. رأيت وجهـــي، آخر صورة لي قبل غرق المرآة كلياً، كان متكسراً، طينياً، مرقعاً وسط الليل الممزق في الغرفة بذبالة الفانوس، وكان.. لا أدري.

قالت: ارفع الفانوس لكي لا ينطفئ. فرفعته، وصاحت: غوراً غوراً غوراً. فقلت: هذا نوح. وأبي معصوم من الماء عند المستر أوليفر.

طَفَـــت أشـــياؤنا، جاء الفيضان يا أمي، اسمعي الهدير والرعد في الســـماء. خـــط البرق يكشف فظاعة السطح الهائل من بعيد عبر الأرض التي كانت مزارعاً وحفراً للعب (الطوشة). أريد ماءً يا أمي. قالـــت: اشرب من هذا الطين.. غوراً غوراً. ثم هدأت وهي ملقاة هناك في زاوية شبيهة بفاصل زمني معدوم، تُنكر نفسها لأجل تربيتنا في قـــتال يتواصل الليل والنهار.. فقط من أجل إثبات نقاء النسل، على اعتبار اننا؛ أنا وهي وأقاربي، نحن بالذات، أبناء دلهوث.

تنتظر أبي. لم يأتِ أبي بعد. انه لا يأتي حين تشتد حاجتنا إليه، وهو

Twitter: @ketab_n

يعرف اننا بحاجة إليه.. ولو إلى وقفته الصنمية في الباب، فلا ندخل أو نخرج إلا بحركة كفه السميكة إلى الأمام والوراء، وهو جزء من الحائط فيما عدا عينيه المضيئتين أبداً ببريق خاطف عطوف. وتحتمل أمـــي غيابه كما تحتمل حضوره، إذ تتذكر البراري في وجع الرأس، ومواسم ربيع الطفولة قبل الهجرة إلى براري القطا والسحالي المنذرة بشر ألسنتها المشطورة.

رأت أمي أن ترسل القطة لمعرفة مستوى الماء في الظلام، لكن القطة قـــد عادت، وما كانت لتعود لو لم يكن الطريق مغلقاً بالماء. وبكت ديّامـــة حين مرت الفاجعة من ثقوب الحائط ومن تحت الباب. وأمي مشت وأنا مشيت على الزبد. جاء البحر إلى بيتنا، وكنت قد سمعت بالبحر، فهل نصنع الشاي؟. لكن إبريق الشاي.. ذهب إبريق الشاي فأعـــاده الكلب وأعاد بعض حاجياتنا التي ذهبت في الماء القريب من ســـياج الحطب.. حطام سياج الحطب المتبقي، ولم يُعد حاجياتنا التي ذهبـــت إلى الجنوب حيث فم البحر.. وقلنا ربما ستأتي الحيتان فأغلقنا الباب وقعدنا.. وكان من الطبيعي وسط هذا الهول أن نقعد ونتحدث عن البراري: رؤيا في ضباب، ظاهرة تضاف إلى سجل نشاط الطبيعة، تشهدها الأرض نفسها منذ أن كانت كتلة من الرماد.. وحتى تنتهي إلى كـــتلة من الرماد، فيما بعد، ظاهرة عزاء النفس لمن له وجه مرقع كوجهي ووقفة جامدة في الحياد.. أريد قول شيء أو أكل شيء..

Twitter: @ketab_n

أتذكر هبوط الدخان الأسود المجنح المقطّع، هبوط القطا. امتدت أمام عيني سنوات من الشقاء والتخلي، وضعت العاطفة في أكواب. قلب مكان مضبب لا نهائي. صحراء على حافة البحر. رأيت الأرض أمامي مفتوحة ميتة، منمنمة بحطام السيليكون وعيون الجراد... هبط القطا، هناك في البراري قبل اشتداد الظهيرة.

سألت أمي: أيهما أكثر؛ الأحياء أم الأموات؟ فقلت: الموتى. لم أكن أعتقد ما إذا كانت إجابتي صحيحة بالضبط لأن السؤال كان مفاجئاً عليّ ولم أفكر به من قبل.

كان القطا يهبط في البراري قبل اشتداد الظهيرة، حيث تخادع الحمير الرعاة، وهي تسرق خطوة جانبية بين كل ثلاث خطوات إلى الأمام عندما تبصر ظلاً ممزقاً لشوكة، وما تبقى من حطام مساكن البراري، حيث كان الناس يربون الأغنام بهوس غريب لأجل صناعة حلوى من السكر والحليب، بينما يستظل الرعاة بحميرهم، وبعض النعاج تستظل بالراعي الذي استظل بالحمار الذي استظل بشوكة أو بما تبقى من حطام مساكن البراري.. وهكذا في حلقة مفرغة كإحدى مكائد الطبيعة القاسية.

سمعت قعقعة أقدام في الليل، فقالت أمي: اسمعوا يا ناس مازال هؤلاء المخبولون يركضون وراء حمدون لأخذ الدرهم الذهبي.. حمدون؟ قالت: حمدون.. غوراً غوراً.. اسمعي يا قطة، قومي لنصنع سداً حول البيت.

Twitter: @ketab_n

فقلـــت: مـــيو يا أمي. ورأيت الماء الماء يصعد بين ساقيها، فأنا الوحـــيد في أورا مـــن رأى ساقيّ أمه، حتى قبل أن تلدني.. وبعدما وصـــل الماء إلى صندوق الثياب الذي لا تدافع عن شئ كما تدافع عـــنه، ولا تسمح لأحد أن يفتحه غير أبي ــ ولا حتى أبي أحياناً ــ فقمـــت لأصـــنع معها سداً حول البيت من جهة الفيضان. وعندما كشف البرق عن سعة الماء توقفت عن العمل وهي تقول: لقد كان لنا مسكن في البريّة. مسكن تحت الحَر والليل بمحاذاة الوادي الذي حفره سيل المطر أثر صقيع الشتاءات المتكررة.

كـــان لنا مسكن؛ لأبي وأمي مع أغنامهما وحميرهما وسط القفر والعقـــارب وأفاعي الآثار المهجورة. وكان أبي يشرب طاسة الدهن الحـــيواني لـــيوفر طاساً من الماء نظراً لندرته.. لو كان لنا بعض ماء الفيضان هذا لنسينا أورا وسحرها. لا ماء هناك باستثناء بئر عميق حفـــره جرذ إنساني، يكاد الناظر فيه أن يجزم بأنه بلا قرار، ويعرف عمقـــه بقـــياس طول الحبل وبانتظار خروج الدلو الأسود، المثقب، الذي يفقد نصف الماء قبل أن يصل سطح الأرض بالنصف الباقي، حـــين كانـــت الـــنعاج تطلع من الوادي فتثير بأرجلها غبار هشيم الحنطة، والقطا النائم بين الجذور، فتثغو حين ترى الماء المالح.

حين أخذتُ المعول، أخذته مني: فأنت صغير لا تقدر على المعول. انه آخر أمل.. ماذا لو تمدد الماء بسرعة تفوق سرعة العمل؟. هناك

Twitter: @ketab_n

البرق يشق الماء. الصورة مازالت غامضة، حين قامت أمي آنذاك مع المعـــول مخـــترقة زرقة الفضاء وغابت في الظلمة التي وراء الباب، فرأيت في وجهها تعبيراً أشبه بوجهي عندما أنظر إلى المرآة وأنا أتألم عـــض الـــدود لجوفي. كانت تنقاد بحدسها دائماً، وتصدق أحلامها دائمـــاً. لمّـــا مرت خطواتها، رأيت الزاوية مرفوعة بالزبد.. فكيف اختلط عليّ الأمر كله وتزامنت صوره مرة واحدة مع لحظة غياب أمـــي، واحســـب أن الذي غاب هو جدّي. أدوس على فأرة مثلاً: فيضـــان، أو ولادة صحراء، ما يؤكد أنني عشت.. ربما كمحاولة لـــترك اسمـــي محفوراً على صخرة أو جدار أو شاهدة أو ورقة.. أو ذاكـــرة.. أو أنني وُجِدتُ هكذا أسوة بأشياء أورا التي لا نفع فيها غير أن تكون جميلة في موضعها، أو مناسبة قياساً إلى المكان.. وربما أفلحت بالتعرف على قيمة النسيان الأبدي.

الصـــورة مازالت غامضة.. لقد اختلط جسد أمي بالظلام بينما كان جدّي ـــ في الصباح ـــ يولد أمام العيون ويتحدى خجله ببعض الحركات ليبين أنه لا يخجل من عريه، غير أن الصورة في هذا الجزء بـــالذات كانـــت واضحة إلى حد ما، فقد أكد مقولته: " أنا قبر ". وسلم نفسه قائلاً: خذني يا ماء... خذني مـــ...

شـــاهدت، وأنا حريص على أن لا أرفع قدمي عن الجسم الحي؛ لمعان الحياة الأخير في عينيه. انفتحت كفاه عن عشر أصابع متوترة،

Twitter: @ketab_n

وغاصَ ثم ظهر بعد ذلك في الحديث الذي يُراد به تاريخ اليوميات..

وجملة أخرى: انه يضحي.. انه يضحي...

وبعدها فكرت بالشكل الضئيل الذي كنته تحت القبعة، في حين أن أحداً لم يبلل قدمه..

ومازالت الصورة غامضة، فقد حرصت أن أكون أول من يخبر جدتي بالحادث، فالصورة ستكون فاجعة ومؤثرة لو أنني أخبرتها مفصلاً، وأضفت من عندي: انه بدأ يرقص وهو عارٍ، ثم سلم نفسه للنهر ضاحكاً.

كان الطريق أكثر طولاً من المعتاد والحيطان تجري على جانبي وجهي، وقدماي تخبطان الغدران بلذة لم أعرفها إلا في لحظات الجلوس على سطح المعبد. لا بد أن تكون منشغلة بتقليب جمر الموقد، وفيها إشراقة بصرية، ثم لا تنسى أبداً أن تكلم دجاجاتها، لأنها مازالت حادة الذاكرة.. خصوصاً فيما يتعلق بالأنساب، فلان تزوج فلانة وأطفلت له فلاناً وفلانة. وتطلق عينيها من كوة الجدار نحو العراء، مُطبقة جفن الأخرى لتكتشف أن الديك لم يعد قادراً على تسلق ظهر الدجاجة.. إلا أن الشيء المؤثر صورتها وهي تستحم في كوخ الحمار. هناك تكويران؛ مشدود ومتهدل، فكانت مثل شيء أسود مرمي على الحطب في بياض الأفق قبل الغروب.. شيء أسود يحكي عما كان لبدايات خلق الأشياء بنوع من اليقين

Twitter: @ketab_n

المغري. تقص عليّ يومياً حكاية شعب أورا نفسها. وتقول: اننا أبناء دلهوث، فأنت ترى فينا الطيب والفاسد، ذلك الذي جمع النقيضين في عقلـــه. تقول: اننا، أنا وأنت وأبوك وأمك وأقاربنا؛ نحن بالذات أبناء دلهوث. وقد أدرتُ الحكاية في رأسي المرمي فوق ذراعها، أشم رائحة الروث ودباغ الجلود وبقايا مستحضرات الأعشاب الطبية. أنظـــر إلى لسانها الذي أدخلته مراراً في العيون المصابة بعوالق القش والتراب. اللسان يقول: أنا وأنت وأقاربنا، نحن أبناء دلهوث.

إنـــني لا أستطيع أن أنسى بأنني قد رايتها تستحم مرة في كوخ الحمار، فارتعدت لشدة بياضها؛ تكور مشدود وآخر متهدل.

كانـــت تلـــك الرعدة الأولى في حياتي؛ أن أكتشف إمكانية أن يكون الإنسان الكبير بلا ملابس، لأنني لم ألاحظ، حتى ذلك الوقت، سوى جلد أختي في الطشت تصرخ.. وأمي تغني. لعلها فكرت بأني صـــغير، وربما لم تفكر بشيء معين، لأنها ظلت في وقفتها كما هي. قالت وهي ترفع الإبريق إلى رأسها المحنيّ وتدهن جسدها بقليل من الماء: أنظر إلى الدجاجة البلهاء، كيف أنها باضت تحت قوائم الحمار. وارتـــدت ســـوادها عـــلى مهل. وهنا، فان الصورة صارت أشد غموضـــاً، في هذا الموضع بالذات، فقد كنت أضرب رأسي بالحائط لأجـــد تفسيراً واحداً عن سبب الاستحمام الصباحي اليومي، هي وجـــدي، كل في كوخ، مع أنهما نظيفان. وكانت الرائحة المعطِسة

Twitter: @ketab_n

كفيلة بأن تجعلني أنسى، رائحة سقوط الماء على التبن المروّث كرائحة القصص، مع ذلك فقد اعتبرها فطنة إلى حدٍ ما عندما وضعت طابوقة مُمَسّمَرَة تحت قدميها. شيء أبيض في عتمة الكوخ، ووجه الحمار أقل بياضاً، والبيض أكثر بياضاً من الجسد ووجه الحمار، وعينا الحمار بيضاوان بلمعة تبرق تحت مغاريّ الأذنين كمخروط الورق، يتبادلان التقدم والرجوع لسماع هسيس الماء المترلق. الأذنان مغروستان في شعفة الوبر على الجبهة. الجدة سوداء في الأفق، بيضاء في الكوخ. في الأصل.. كيف أستطيع انتزاع المشهد؟.. هل كانت تستحي من وجود الحمار معها؟. جدتي. جدتي. جدتي... أين؟. إنها المرة الأولى التي أشعر فيها أن حادثاً تاريخياً قد حدث فعلاً، أمامي، لا أقصد حادثة الاستحمام، بل انني حين وصلت بيت جدي، ورفعت يدي لأضرب الباب. لم يكن هناك باب، فقد تم إغلاقه بحائط إضافي من اللّبن. فاكتشفت انني نسيت أن جدتي قد ماتت بعدما عدنا إلى أورا بسنة واحدة، وقبلها كنا نتابع القحط في البريّة، عند ذلك علمت أن جدي لم يكن موجوداً قبل قليل، لأنه حدثني مرة عن طموحه في أن يصبح أحد جنود آشور، ونقل لي مشاهد صيد الأسود وأسرار صناعة القسي اللينة.. ثم مشهد غرق الوزير.. وما إلى ذلك. صورة محوّرة لطائر الشقراق، أزيز السهم، باحة للرقص. البداية هناك. صورة الحياة، هي محاولة

Twitter: @ketab_n

مستمرة للتخلص من مشقة الجسد، وبذلك فإننا مجرد كائنات تاريخية، كتب لها، في لحظة ما ــ قياساً إلى الزمن الشيخون ــ أن تعلن عن وجودها وتذهب.

لقد تذوقت مرة أخرى في تحديد المكان الزماني لي، فصرت مدمناً على الشك بالحوادث، أعني الظرف الملائم لوجوب حدوث حادثة، وكان قد مضى زمن طويل تغيرت فيه صورتي الهزيلة تحت القبعة، وتناسيت أنني كنت أحب نفسي، أنا المقدس في نظري، حتى بعدما تبوأتُ مركزاً عاطفياً نقل الشعور الأناني خطوة واحدة على الأقل خارج داخلي.. وبكيت حين اكتشفت بأنني مازلت طفلاً. بكيت على المشهد كاملاً، مشهد الحيرة الصغير، الحاجة إلى حادث أكبر. أكبر من المطر خلف الباب. والهواء البارد يمر. فهل كان لديّ ما أقوله؟. أقول: نعم إنني بحاجة ماسة إلى الاستغراق، بيد أني لاحظت انسحابي المتمهل إلى متطلبات يومية خوفاً من أن أتورط في شيء أحبه، وأتعلق، فيبتعد داخلي عني وأسقط في الحرج وقد صرت آخر يستحق المحاسبة بلا رحمة أبداً، لذا فقد حصلت لي بعض التغيّرات المؤقتة مثل محض حلم بسيط لم يتحقق أصلاً، بل أود أن يقع، في المسافة بين بيت الجدة والفيضان، في الحساب التاريخي، حيث تفر الأحلام أحياناً ونجد تماثيل الآلهة في المكان. بالضبط كنت أؤجل دائماً لحظة التفكير بنفسي، لأنني أعرف كرم القسوة، وأعرف الهوة

Twitter: @ketab_n

الـــتي عليّ أن أقفزها لكي أعود مرة أخرى إلى الفيضان، فلابد أن حدثـــاً يحدث، إذ أشعر ببعض التعب، ويسافر بصري فوق الصخر والوقت. هكذا، أسرع، أسرع. لم أعد خائفاً من الكسل كما كنت، لأنـــني لم أعـــد أثـــق بالنسيان وإن كان يُخلصني أحياناً من وجع الفكرة.. أنا مصدوع إذن أنا بخير.

اكتملـــت الصورة الآن. قالت سارة، فيما بعد، إنها حين رأت قدميّ الغريقـــتين؛ واحـــدة بالحذاء والأخرى بلا حذاء؛ شعرت بأنها فقدت إحـــدى قدميها فانزلَقت. من جهتي، مازلت أدوس على الشيء الناعم الدافـــئ، ولم يكـــن لي أقـــدام أستقر بها، وكان أبي قد علمني الغوص فغصـــت لأحيط وجهها أولاً بكفيّ. فيما بعد. ذلك الوجه الذي ظل مصـــموغاً ثابـــت النمو منذ محاولة الغرق، لم يُدمه الخدش على موت جـــدّي، ولا تجريـــب الأصباغ، ولا الانكسار بعد ارتكاب خطأ مخافة الذنب الذي يشبه الخيانة. تبدل الوجه لحظة اللمس إلى وجهين ينافسان بعضـــهما في الحضـــور، يسكبان بلا مقدمات حلمية دفقة من الشعور الهائل فيما يخص قوة الشيء ونسيان الزمن، قوة الضحك بعد الحصول عـــلى... وقال أدهم: ابنتي!!.. إنها لك. فأحاطت بي العيون والأفواه نصف المفتوحة. مبلل وصغير: أنقَذَها.. هذا هذا ديّام هذا ديّام. ستكون زوجـــته. أُنظروا إليه أُنظروا. أنتَ الذي خلّصتها. أنت. أنت... أنا؟. أحـــاطوا بالصغير. صحيح، لو أنها غرقت في الفيضان لغرقت، ولكنها

Twitter: @ketab_n

حفـــرة تابعة للفيضان، مجرد حفرة استعملها البعض للتغوط ليلاً، والآن امتلأت. من جهتي.. كنت جاداً إلى حد عظيم، فحتى لو كانت حفرة ضـــحلة.. يا بطل. تصاخبوا اكثر وأحاطوا، فركضتُ وركضوا ورائي في الـــدروب التي لم يصلها الماء بعد.. وأحاطوا.. لكني وجدت منفذاً تحت خصيتين فركضت، وركضوا.. وأنا قوي وهم يدخنون. قلت لهم: حمـــدون وجـــد درهمـــاً ذهبياً. فانفضوا عني وتبعوه. تركوا الفيضان وتبعوه..

بعد الفيضان

(بيضة الرّخ)

Twitter: @ketab_n

ـــ ٤ ـــ

بعـــد سنين نظرتُ إلى جسده الممتلئ بالذكريات، الجسد الذي غـــاب في الظـــلمة مع المعول وراء الحدس قائلاً: لقد دفنوا زوجتي وهـــي حيّة، إنها لم تمت أعرفها. إنه لن يقتنع حتى لو كان قد حضر الدفن، بقطعة الصوف على الأنف لقياس حركة التنفس.

البدن.. بدنه صار أكثر هزالاً، وهو الآن، في هذه اللحظة يخرج مـــن الغرفة مظللاً عينيه بكفه ويقول: أين الولَد يا ديّامة؟ أما زال يجلس على سطح المعبد؟. ثم يرسل عينيه في خط بعيد صوب المعبد ويقول لأختي: أخشى أن يتحرك المعبد وينهار.. انه يتحرك قليلاً نحو الـــنهر.. أخاف أن يسقط بالولَد، انظري، ألا تؤيدين؟ فتقول: انك تتوهم يا أبي، منذ زمن وأنت تتوهم. فيقول: ربما، ولكن ليس عنك من قوة البصر بحيث تلاحظين تحركاً لا يتجاوز الإصبع... ويتجه إلى الزريبة لقضاء بقية النهار مع الثور.

لم يكـــن ليغير عادة النوم النهاري بعد الغداء منذ وقت الفيضان. يَعد نفسه بالأمان ويَعدنا، وقد بدأ يعتني بالثور بشكل جنوني بعد أن سرق أوليفر الثور الحجري بمساعدة الحداد وأبنائه مغرياً إياهم بالكثير مـــن النقود. عندما علم أبي بالخبر ثار ضد أوليفر، فأقنعه الأجنبي أن

Twitter: @ketab_n

الـــثور لم يُســـرق وإنما طلبته الحكومة، ولم يكن أبي ليقتنع فقال له:" ولـــــو..!.. انه ثور أُورا "... ولذلك ترك العمل عند أوليفر وراح يهتم بثور حي ليلقح أبقار أُورا كلها لعلها تخصب ثوراً حجرياً.

يَعِد نفسه بالأمان ويَعدنا، في ظلمة شبه كاملة مما جعل حريته في الحلم أقل مما لو كان يتمنى، فقد أعطاه الله أولاداً مختلفين عن سائر الخلق: أنا مكتشف الاستغراق بلا صحوة. وديّامة نقمة الجمال بلا تجـــربة تُذكـــر، سوى السفر في الهواء، وفكرة إيجاد القوي مبكراً، ولذلـــك فقد كانت تقضي بعض ساعاتها في رعاية الثور عند ذهاب الأب إلى عمله في حفر الآثار. وكانت أيضاً، تنظر من النافذة عندما يلقـــح الثور أبقار أُورا. أما بقية أخوتي الثلاثة وأخواتي الأربع فقد أخذهـــم الطـــاعون باستثناء نيران التي تزوجت من عطّار متجول وانقطعت عنا أخبارها حيث أخذها إلى أعالي الجبال.

أما أمي فلم تحلم أن تكون روحاً تاريخية. ذهبت بلا أية فكرة عن الشر، ولذلك لم تكن من الممثلين لسلالة دلهوث وفق مقياس جدتي، فدلهـــوث علّـــم أبناءه الشر قبل الخير لكي يتجنبوه قبل أن يفعلوا الخير، لأن الشر أقوى تأثيراً، ولذلك فان مجرد إبعاده وإزالته هو من عمـــل الخير، كما كانت تقول جدتي نقلاً عن دلهوث:" باشر بإزالة الشر ستجد نفسك قد باشرت أصلاً بعمل الخير، بل ان مجرد إزالة الشر هو عمل خير.."... أما أبي فيُنسب الأمر دائماً إلى جزاء العقاب

Twitter: @ketab_n

عـــلى ذنـــوب لا يتذكر أنه ارتكبها. الشكل العام للعائلة: وسيلة اعـــتراف بأن هذه اللحظة ـــ هذه اللحظة دائماً ـــ هي خطوة من المشـــي المســـتمر نحو النهاية، والنهاية أكثر حياة من (الآن) وفق أعـــراف أهـــالي أُورا.. لأن الزوال هو خلود الأثر. والحياة شر.. وإزالـــتها هو مباشرة بعمل الخير... لذا فان فكرة الفوز لم تعد تعني لأبي أكثر من ذكريات فارّة تخص السخرية بالزمن. انه هائج بعدما أكل مدقوق التمر بالسمسم.

لابـــد أن يمـــر بحظـــيرة البقر كجزء من الواجب اليومي. يغرس سيجارة في الفم الضائع بين الشَعر. الأب المهمل، الشفاف، الشرس أحياناً، بسبب ذهاب زوجته وذهاب الثور الحجري، تلك الصدمات الـــتي حجّرت أمنياته. ويقول: لا أحد يفهمه؛ لا ديام ولا ديامة ولا أولـــيفر، ولا أحد من أورا... الصورة مظللة في بعض الأجزاء بعدما ذهبَـــت التي يملأ حنانها المكان، وتلك التي تعلمها من ابنه، لا تقاس الخســـارة بأي شيء سواها.. " فالكأس الذي انكسر لم يعد بالإمكان أن أشرب منه ثانية "[1]. كما يقول أوليفر. ثم لبس الباب، باب عادته اليومـــية، الـــنوم، النوم. لا يُصنف هذا الداء بأكثر من شوق للنوم الطويل. منذ زمن أعد عدته للرحيل، وأنا لا أريد أن يفوتني شيء.

انه يقبض الذراع الأقصر من النهار. النافذة مفتوحة على المشهد.

---

(١) من قصيدة للشاعر الإسباني أنطونيو ماتشادو.

Twitter: @ketab_n

مقـــتربا أكـــثر فأكثر من النوم. يشعر ببعض العجز عن القيام بأي مجهود. لا رغبة له بأي شيء. ومن بعيد:" يا أهالي أورا.. اسمعوا.أيها الرجال، وأنتن يا ناعمات.. اذهبن إلى النهر. النهر مرة أخرى. النهر مـــرة بعد مرة.النهر.. النهر .". وقطع تنفسه تحت اللحاف. كان يرغـــب أن يفر إلى جهة ما؛ ربيع بلا نهاية أو خريف منسحق. وقد يفكر انه بحاجة إلى تسلية. حبذا لو يستطيع أن يتمنى الغطس لآخر مـــرة، ولو لمرة واحدة، هذه المرة فقط.. وربما لاشيء. صار جسده الثقل الوحيد الممكن آلام تذكره بآلام أخرى، على مشهد مفتوح، مـــنظر رآه ذات ليلة وتمنى أن يزول بسرعة لكي لا يتذكره دائماً، كمـــنظر البعوض الميت على أسلاك الشُباك. التجأ أخيراً: السرير نعـــش. لم يعـــد يستطيع أن يستطعم شيئاً، تجربة شخصية خاصة، فسوف يستغرق في عد الأشياء التي تتحول إلى ما هو أكبر منها ـــ أنا وهو نتلامس في هذا الجزء ـــ سوف ينام.. ينام.. يناااام..

نظرت ديامة من الباب بعد أن سمعت صوت المنادي: إلى النهر. النهر يا أهالي أورا. إلى سباق الغطس السنوي. ونقرت الأرض فلم يـــتحرك. لم يتحرك. رأته عبر الحائط، عيناه مفتوحتان تحت الغطاء، فـــلأول مرة تربح العادة وينهزم الاسم، لم يكن ليكسر هذا النظام، مهما كان. وهي لا تعلم ما إذا كان سيغضب إن لم توقظه.

عيناه خائفتان في الوقت الذي يجب أن يفوز في مسابقات الغطس

Twitter: @ketab_n

تحـــت الماء، إذ إن أحداً، ومنذ تسعة عشر عاماً، لم ينتزع منه بطولة الغطس، لأنه قد توصل في وقت مبكر إلى حيلة تأجيل الحياة لبضع دقـــائق؛ إذ يمكـــنه أن يوقف دقات قلبه دقّة أو دقتين، غير انه لن يشارك في هذا الموسم على الأرجح لأنه مشغول بالنوم.

عادت أختي إلى غرفتها، مذهّبة، نادرة، مستحيلة الوصف، كموضوع يـــتعلق بعـــداء الفراشة للأسد. كما أعلم انه يستحيل عليّ أن أمسك بصـــورة مستقرة لها، مع أن حياتها خالية من أي حدث، فقد اجتازت ـــ بطـــريقة بالغـــة التعقيد ـــ الخط السلوكي المرسوم لسلالتنا وتحولت إلى صورة مقاربة لصورة ملاك دون أن ترغب، ولم تنفع مقولاتي التي تعلمتها مـــنذ أن لبست قبعة أوليفر: لا تكون المرأة إلا إذا حطمت المرآة، أو: بما أنك امرأة من أورا فلن تستطيعي نسيان جسدك أبداً، أو: في غرفتي التي تحولت إلى مخزن للمتروكات وأكلت الفئران وجه شكسبير؛ لا يمكن أن أتخيل بأن تكون امرأة ما موضوعاً للذة رجل.

وهـــي، في هذه اللحظة، أمام المرآة كما لم نتفق تصمت، فأشعر بأنني أكلم نفسي، وأنصرف لأنها تنام حين يشتد حماسي للحديث. خطـــوات قصيرة محاصرة بتوترات العادة. أوليفر: اقرأ يا ديام هذا الجـــزء الخـــاص بوليم بليك:" حين ولِد الطفل صبياً أعطي لامرأة عجوز.. فثبتته على صخرة بالمسامير. قطعت يديه، وقطعت رجليه وعبأت صرخاته في كؤوس الذهب".. أعطي لامرأة عجوز.. امرأة

Twitter: @ketab_n

عجـــوز.. امـــرأة عجوز... ان كل شيء يمكن أن يكون موضوع دهشتها طالما انها لم تر شيئاً معيناً.. أقول لها: اقرئي أنتِ هذا المدهش بليك. اقرئي أنتِ. فلا تفهم وتقول: لا يمكن لعجوز أن تقطّع يدي ورجـــلي طفـــل. هل يمكن أن تقطع جدتي يديك بدل أن تلف لك البيض بالعجين وتستخرج الدود منك؟.

أضـــع القبعة على رأسي لأتأكد إن كنت أفهم بليك حقاً. فالعالم لـــيس أكثر من مسافة تعدها بالخطوات، عالم السيدة أوليفر القادمة لأجل خرائبنا، وأوليفر الولوع بهذه الفخارات، انها مجرد فخار، فخار لـــه رنـــة حين ينكسر. فخار الموتى والجماجم المنحدرة مع السيل. سيحدث لي شيء غير الزواج. ما هو؟ سيحدث لها شيء غير الزواج، تـــتلامس معي في هذه النقطة ـــ تتنبأ ـــ أو تعتقد أنها تتنبأ، تظن أن شيئاً ما سيحدث لها. صدقيني لن يحدث شيء أبداً، طالما أن أوليفر قد وجـــد رقيماً يعود تاريخه إلى أكثر من ألف سنة،" لقد امتلأت الدنيا بالشرور والمفاسد، واقتربت نهاية العالم، وأصبحت الحياة مستحيلة... إلخ".يقول: (أصبحت) قبل أكثر من ألف سنة!!.

فِـــشـــفاشـــــة؛ كلمة مناسبة لوصف حياتنا هنا. فِـــشفاش.. فِـــشـــفاش. سيحدث لها شيء. صرخة الطائر، شئ رهيب، انكسر الفخار.. آه يا للألم!. هنا أسفل البطن، في مسبحة الظهر. ما الذي يجـــب أن تطبخ للعشاء؟ وسقطت مثل عمود على السرير. عيناها

Twitter: @ketab_n

تدوران: قماش السقف السمائي، قماش الحائط المطوي في الزوايا، الأجراس النباتية المتدلية. لكِ يد رقيقة يا أُخت، يا أُخت.. يا أُختي..

قال لي: اقرأ هنا يا ديام، هذا الجزء الخاص بوليم بليك. للأسف لم أكن أفهم دون أن أضع القبعة. خذي الأجراس وعلقيها في السقف ستُبعد عنكِ، على الأقل، بعض الوساوس السوداء، صحيح أنكِ جميلة يا أخت.. يا أختي. وهنا قلت: إنني أعرف أشياء كثيرة، منها التحكم الذهني بحركة الشمس. قلت: أريد سارة يا عمي، سارة التي رفعتها عن الغرق. قال: غداً، غداً. وضرب السندان بقوة. تناولتُ فحمة من موقد الكير ورسمت على الحائط شمساً، ثم قلت: أنظر لقد طلعت الشمس وجاء الغد، لقد وعدتني. المهم أنني جعلته يبتسم، لأن أحداً لم يره يبتسم لأحد مرة، وابتسامته وسّعت النقطة العمياء.

لم أكن أريد شيئاً معيناً، ولا حتى سارة، بل أريد أن أتحول إلى ملاك مثل أوليفر.

طلبت ديامة مني لوناً من القماش، لون السماء، فقد ضجرت من هذا المنظر اليومي للسقف. وضعت لها دكة من فخار أورا المنقوش بصور ضباء وحيوانات هاربة، وغطيتها بالقماش نفسه، فلا تدري إذا كان الوقت ظهراً أم عصراً.. لا شيء محدد في أورا، ولا سيما الوقت، حتى اننا لا نعرف في أي عصر نعيش طالما أننا محاطون بأنقاض، وان أوليفر يطلع علينا يومياً بخبر جديد من تحت التراب:

Twitter: @ketab_n

الطائر زو، الإله آشور حل محل أنليل السومري واستحدث أدد إلهاً للعواصف، كالح هي نمرود الحالية، سنحاريب هو الذي أسس نينوى،... إلخ. ثم إننا محاطون أخيراً بصيحات النسور.

لابد أن تمر ديامة بحظيرة البقر، واجبها اليومي، تضع صحن الطعام أمام آدم، تمشط لحيته، وترى في عينيه، بعد رفسات الهياج، ظل ابتسامة ومسافة شيخوخة مبكرة. تحكم شد أزراره، فهو يحب أن تمد يديها، ولو إحدى يديها بحركة استخراج، تُذكر أن العالم مأهول، ومازال يأمل بتحطيم كيمياء الجسد والعودة إلى السخرية المُرة، والكلمة التي تعني نفسها، حين يعد أحداً بالذبح فإنه يفعل. إنها لا تحتمل أن تمكث كثيراً هناك. لا يقول لها شيئاً لأنه مشغول بتفحص الثور. الثور المسروق نفسه، أضلاعه الحجرية كمشط العانس، بعضها محطم في لوح الحجر، يكاد أن يتحرر، وعينه ناتئة.. إنها من أجمل الصور وأوضحها على الإطلاق.

ديامة مترسبة في قعر الغرفة، غاطسة، واثقة بمكانها، الدكة التي تبدو مائلة حين تميل رأسها بزاوية ما، لترى شكل رجل منكسر أمام الثور، عبر القدح الزجاجي. القدح يُستعمل أحياناً لحفظ الأقراط في الليل. يمتلئ المكان بتقلباتها وهي تعاني من بوادر الآلام الدورية، فتصبح مستعدة للقتال. وكان أبي يعرف وأنا أعرف، أما أمي فلم تكن موجودة حين اقترن الأمر بصيحات الطيور. كان علينا أن

Twitter: @ketab_n

نستخذ التدابير لتهدئتها، ونتحمل شتيمة منها أحياناً، محاذرين أن نضحك بقصد التخفيف، وما علينا إلا أن نصمت أو نساعدها بحركات المطبخ. ونحرص على اسقائها الماء من الإبريق مباشرة مخافة أن تتذكر البِركة في شكل الإناء. كنت أقول لأبي أن المشكلة كلها بسبب الثور اللعين، وأعرف أنه لا يستطيع الاستغناء عنه.

كانت تنام على بطنها بعدما تفرش الأرضية المُحَفّرة ببطانية للحظة خلوة، بينما تصفر الريح بين الخرائب بسرعة متوسطة تُطيّر بعض الأشياء، وتحرك ستارتها، فتستعين بدبوس الشَعر لتثبيتها. الصفير يلامس خشب النافذة محملاً برائحة الثور عبر الحظيرة. تسمع طرقات على الباب فتصبح أكثر ترقباً وحذراً في الحركة، يتأجل الألم، وهي نادراً ما تحلم في مثل هذه اللحظات، لكنها تستعين بذكريات غائمة للعبور إلى العافية حتى رؤية الانقطاع، وما عدا ذلك فالهدوء في البيت شبه نادر رغم بعض الترتيبات السرية والحيطة. تسمع تنفسها. تسمع حديثها الهامس من مكان بعيد، حيث تصبح فاعلية الخيال أقل. وتلعن كل حديث قلته عن المرأة، في زمن لم أكن أعرف شيئاً عملياً عن النساء، ولكن وصفي لهن كان أدق بكثير مما لو عرفتهن فعلاً.

لو عادت قليلاً صرخة الطائر، شكل البِركة في المرآة. تصبح التجربة في لحظة حضورها الأمنية افضل من ذلك كله. تتوقع أن يحدث لها شيء فأطمئنها أن لا شئ يحدث، مع ذلك وددت لو أني

Twitter: @ketab_n

أكذب عليها، فمع إدراكي بعدم حدوث شيء. كنت أطمح دائماً أن أتحول إلى حادث.

رأيتها عبر المواد، تتحرك قليلاً لأنها بلا وسادة، وهي قليلة الصبر في مـــثل هـــذه الحالة، تأمل أن تحصل على خدعة نسيان الألم بملء الفضـــاء بالتنفس والرواح والمجيء والقفز. صوت القدم الحافي على الأرض كصوت سحب شريط لاصق. تحوّل القدم.

طـــرق الـــباب، فتذكرت أن أبي يطرق الباب أحياناً ثم يعود ليلتف بغطائه حتى نجهز له الشاي والعصرونية، فهو نادراً ما يتغدى قبل النوم.

* * *

كان أبي قد استيقظ بعد هزة مقاومة الوقوع من السرير بعدما رأى أحد الكوابيس في جانب من جوانب الأرض التي تحتفظ، رغم وحشية الأزمـــنة، بـــالدغل وبين آخر نقطة لآخر جملة من الحلم، ولحظة فتح العـــين، رأى الضوء يرفع غطاء غرفة النوم وينسكب في عينيه. ربما كـــان ذلك في آب، في أحد الأعوام الخالية من وقع الترتيب المنطقي، لـــتوالي الأيام. كانت الشمس تهتز في النهر تحت الصفصاف دون أن تفقد بعض حرارتها. وكنت أسأله ما إذا كانت أحلامه تدور في زمن معـــين، مـــع أنني أعرف أن أحلامه ابتدأت من الكهف، منذ ذلك الـــمـــتَى الزماني. كهفه المشرف على صخب الأرض إبان طفولتها الأولى، حيث قدمت له الأسُود كل حِيل السيادة الممكنة وهي تُنَصّف

Twitter: @ketab_n

قطعان الوعول بأنيابها.. أما الأمطار فتأتي بلا موسم فتوسع الجداول، وبـــرك الأسماك وتدعم النباتات المفترسة. إذ تحمله مشاعر صغيرة نحو سمائـــه الخاصـــة حين لا تسمي الذكريات عبثاً، حيث كل شيء ليّن وسلس بمتناول اليد، حتى رجفة تلف الأعصاب تصبح من ضرورات اللذة حين يتخلص من جميع مسؤولياته وكآباته المكتسبة، ويتذكر أنه حـــلم بليلة بعيدة جداً تأخذ بعد التكوين الأول للأرض، إذ كان ينام على سلم الكهف، ويرى الدغل الشاسع ذي الاهتزاز الرتيب، فكل شيء يصمت تلك اللحظة، وهو يحرك عينه بحذر ليتفحص الفجوات المظـــلمة الرهيبة بسبب تراص أغصان الدغل، أو بسبب البرك التي رقّطت مساحة الامتداد الشاحب تحت شرفته الحجرية..

في إحدى الفجوات كانت الفهود ترى عينه اللامعة تدور حول نفسها ببطء لا يكاد يُحس، تراقب سكون العالم حتى انغلاق الأفق.

تركـــت الـــرؤيا بعد انسحابها غمامة من الصور في أرجاء الغرفة، في المرآة، فهو يتأكد بين وقت وآخر بأنه أكثر أو أقل شباباً من اليوم الماضي. الرؤيا في ملابسه، في السرير، في خشب الخزانة ـــ كلما أتيح له أن ينقل بصـــره إلى أحد الأشياء التي تؤكد أنه استيقظ نهائياً ـــ وفي بقايا السجائر الـــتي عاقـــب نفسه بها، فاختلطت الرؤيا بالدخان ولم يمتزجا. بعد توالي ابـــتداء السنوات من ذلك التاريخ اللا متناهي، حيث يفتح نفسه كنافذة مخافـــة الجوع أو عدم التصديق، على صورة له محاطاً بالصمت المقطوع

Twitter: @ketab_n

بقرقعة طرف الرغيف، فينتبه أن ديامة تصب له الشاي، ويسألها أن تتأكد معـــه من صوت يناديه. فتقول: انك تتوهم يا أبي، لا أحد. هنا أدرك أنه ســـيعمر طويلاً بمساعدة جدول الأيام المتشابهة، وكأنه لم يعش سوى يوم واحد على الأقل، حتى بعد أن تجاوز منتصف.. الرغيف.

حـــين فـــتح عيناً واحدة ذات مرة، أما الأخرى فكانت ملصقة بشمع الرمد. رأى بيضة مرمرية في شباك غرفة النوم محمية من خطر الســـقوط بفضل حلزون قضيب الشباك.. تذكر الرؤيا في اللحظة الـــتي.. آه.. ســـنّي.. وأرسل لابنته إشارة تأنيب عبر الهواء الراكد بينهما لأنها لم تجدد طين التنور، وحتى في لحظة طحن الحصاة، لدغة الألم. لم يـــنس ترتيـــبات الرفق التي أعدها لاستقبال ألمها الشهري. يـــتحمل ويُعـــد الشاي بدلاً عنها أحياناً. فطافت الإشارة في البيت الشـــرقي ذي الأربع غرف. أما غرفتي، فائقة الذوق بسبب جهود ديامة التي تمسي أكثر فتنة وأطول وأنعس عيناً باقتراب المساء المشبع بغـــبار الدغل المنتفض بحركات الخنازير والذئاب وبنات آوى. وهو يمســـك فكـــه ويسند رأسه على الحائط، والباب يهتز، فمن الذي يطرق يا ديامة؟. وراء الباب صوت يقول: أوليفر يريدك يا عمي.

فـــيخرج عن توازنه وينهض على قدميه غاضباً: قل له أن يذهب إلى الجحيم.. وقل له بأنني إذا رأيته سأقتله.. إلا إذا.. إلا إذا أجابني عن سؤالي، قل له أين الثور الحجري؟.

Twitter: @ketab_n

الهــواء الــبارد يحــيط جسدي. لابد انني كنت غاطاً في أحد الكوابــيس التي تصوغها مهارة الخيال في لحظة غيابي. نظرت عبر النافذة نحو المنخفض، ثم امتد بصري نحو القنّ الغربي:" أنت أفضل شــخص عرفــته يا ديام، لأنك مثقف بثقافة غربية ". هكذا تكلم أولــيفر. وصــرت حــاد العاطفة فجأة حين تذكرت الجملة لحظة استيقاظي من النوم. تمنيت أن أجد امرأة تناسبني.. ليس في أورا مثل هــذه المــرأة، التي يجب أن تشبه إلى حد كبير السيدة أوليفر. متى حدث ذلك؟. لقد ظهرت لي من جديد مشكلة الزمن، والحاجة إلى إثباته، كأنني لم أعش.. كأنني من بلاد أخرى.

حــين استيقظت، توجهت فوراً إلى إبريق الشاي، وأوقدت المدفأة لأســخنه، ثم اتجهت إلى النافذة كي أتمتع بمنظر الفجر لحظة انسحاب الحــيوانات إلى الدغــل. أزحت الستارة بحركة حذرة، برأس إصبعي. طقــس نحاســي، والشمس تنحدر نحو الغروب!!. تذكرت أنني نمت ظهراً، لأول مرة أنام بعد الظهر!!. إذن، إنه ليس الصباح كما ظننت.

انســحب المشهد ببطء نحو الشمال، حين أظهرت الثعالب رؤوسها للإغــارة عــلى دجــاج أورا. فكرت مرة أخرى ببرود كلمات العزاء وخوائها.. وقارنت كل شيء في أورا بلحظات الارتعاش التي أقضيها مع

Twitter: @ketab_n

أولـــيفر نسمع شوبان على الغرامفون. لحظات لا يمكن الإحاطة بها ولا يمكـــن تحديدهـــا أبداً. كيف أصبح سعيداً معه دفعة واحدة وبلا متاعب مســـبقة. ولكنني أستيقظ بينما تغرب الشمس. هذه هي المعادلة الخاطئة. فالفـــرق بيني وبين أوليفر هو فرق زمني لا غير. فأنا لا أستطيع أن أتذكر أيامي دون أن أشعر بألم زمني. أستيقظ في حين تغرب الشمس.

مـــرة أخـــرى: السر يكمن في هذا المشهد الشمالي. في اصطياد فكرة معينة، لكي أكون أفضل. ألاحظ انني ما أزال أحجز الستارة بإصبعي الحذِر وهذا يعني أنني أخشى أن يهاجمني فضاء أورا..

يترلق بصري نحو إبريق الشاي، وأقول: سأصبح سيئاً، طالما أنني بدأت أتمنى أن أنام في النهار. يدخل ضوء الغروب ويلون كل شيء. أريد أن أعرف ما الذي يفعله أوليفر الآن؟. ما الذي تفعله ديامة، ما الـــذي يفعله أبي.. ما الذي تفعله أورا؟ وأي جهل زمني يحركهم؟ ترى كيف يقضي الإنسان نهاره بفعل لاشيء.. بانتظار لاشيء؟.

هـــناك، هـــنالك، هنا، ليس لهذه الإشارات من تحديد طالما أن الأشياء جميعها بلون الغروب. يجب أن أكون أكثر سعة، لحظة العودة للإمســـاك بفكـــرة معينة، أية فكرة تقفز لتصبح جزءاً من المشهد اللانهائي، لهذا الغروب حيث تتبعثر نثارة الشمس في نفاش الأشياء تبتعد.. تبتعد أكثر.. من يدري إلى أين؟.

* * *

Twitter: @ketab_n

بـــدأت ديامة بالحفر منذ الظهيرة محاولة أن تسبق حلول الظلام، غـــير أنها ستتأخر مضيعة الوقت في عملية تخليص التراب من بقايا العظـــام البشرية التي تتحول إلى مسحوق أصفر بمجرد لمسها، وقد اعـــتاد الناس على رؤية أساور فخارية تحيط بعظم تالف، كلما أراد أحدهـــم بناء كوخ على أنقاض مملكة بائدة، ينبشون ويعثرون على مقـــابض أكواب النبيذ، وجرار حفظ العطر، وزوايا حادة احتلت مكانـــاً في التراب. أنصال رماح أو قرون وعول استخدمتها النساء كأســـلحة للدفـــاع عـــن أواني الزبدة، أو مسننات وضعها محارب ليستمتع باستراحة قصيرة ـــ تبعد عشرات القرون عن لحظة سلام عميقة أمام النهر المنهمر من السماء.

انتصـــب ظـــل فوق ديامة، وهي منهمكة بالحفر، فرفعت رأسها. أبصـــرت ياسين ومطلق ابني عمها الحداد وهما يتخصران ويبتسمان بخبـــث، وهـــي جالســـة في الحفرة. كانا يحملان عدتهما من الحبال والهراوات لصيد الخنازير. قال أحدهما: إيـــــه.. بينما نحن مشغولان طـــول هذه السنوات بصيد الخنازير.. تسرقين أنت جمال النساء ولا نـــدري. وقال الآخر: اختاري واحداً منا.. يتزوجك. فرفعت المعول وضـــربته بشدة في الأرض، مواصلة الحفر ومتجاهلة لهما بينما راحا يضـــحكان. قال أحدهما: لولا أننا الآن مستعجلان لصيد أكبر خنزير في أورا، لتمنيـــنا أن نظل معكِ ونساعدك، صحيح أنكِ جميلة، ولكن

Twitter: @ketab_n

المغامـــرة ســـتكون أجمـــل، في الوقت الحاضر على الأقل... وهبطا راكضين من التل نحو الدغل وهما يصيحان كالحيوانات..

تنسى ديامة إساءتهما وتنهمك في الحفر، مفرغة نفسها من كل فكرة، مشـــغولة بمزيد من الحفر. صارت مستقلة عن مشاعر الضيق الذي تبعثه المســـاحات الشاسعة، وخواء المكان، والعمل المتواصل للريح لأجل شق ممـــرات ضوء الغروب، حيث فقدت الشتائم قوتها لأنها لا تحظى بإجابة، وتحولت الأحجار إلى كراسٍ نموذجية لبعض النسور الشائخة.

مازالت بعض الأعمدة التي استُخدمت فيما مضى ــ تقف هناك، في ضـــوء الغروب منذرة ديامة ــ كأسرجة جلس تحتها سنحاريب يشـــرب نخب النصر وهو متحصن ضد الزكام بفراء السباع، بينما تدلـــت رؤوس العيلامـــيين ذات العيون البلورية الغائمة، ورؤوس الراقصات اللواتي اكتسبن الرشاقة بعد تمارين تسلق درجات المعبد.. حيث تحول كل ارتفاع إلى قعر بعد انهيار مكتبة الرُقم.

لا نجد أثراً يدل على أسف تاريخي في وجه ديامة، وهي منهمكة بالحفـــر، بل على العكس، نجد وردة الحياة ونتذكر الملكة. اصطدم المعـــول ــ لحظة اصطدام الليل بالقِمم ــ بصخرة مضيئة كدرهم ذهبي في قلب مغارة تراب التنور.. وظهر فراغ.

أزاحـــت الصـــخرة فوجدتها منتظمة، ثم كانت علبة من المرمر المضـــيء، دفعـــتها عظـــام يد رئيس الزمارين عبر طبقات الزلزال

Twitter: @ketab_n

والترس، إلى عالم الوجود، إلى يد الحفيدة ديامة، لتمسح عنها التراب كما تمسح مصباحاً مغبراً.

كانت لحظة الاكتشاف، التي لا تحصل عادة بحضور الآخرين ــ تعادل رصيد تجربة الحياة كلها بالنسبة لديامة التي بقيت سنوات طويلة حبيسة جمالها، وكل ما تعلمته في فترة الصبا من أخلاق الرعاة والماعز، واهتزاز الغصن في الجدول، سكون ما بعد الغروب، البحث عن العشب بين حطام الفخار. تضيف السلاحف إلى حجمها دوائر من الماء الأخضر المُموّج بتأييد من صدى الشاطئ، وطبعات مخالب الطيور وأصابع الأقدام الحافية على الرمل لصبي مد فمه، فما أخف أجسادنا عند حصول الدهشة.. يكاد أن يفقد الواحد وزنه بخفة الورقة، ورفة ريشة الطائر الذي رأى صبياً وصبيّة يشربان كما تشرب النعاج. تلك الصيحة: ألم في أسفل البطن.. طائر الماء.. ما هذا يا ربي!!؟.

نسيت أدواتها، وقد نقلتها العلبة العجيبة إلى البيت فوراً، فأشعلت المصباح.. لم ترَ مثل هذا!!.

كانت الحيوانات المنقوشة على العلبة بشكل بارز، تتحرك حول عربة بفضل دفقة ضوء، يدفعها بمقدار محسوب حجر العلبة المرمري.. فتدور العربة والوحوش حول الزوايا، عبر فضاء يذكرها بصورة جانبية لكوكب زحل كما تحدث عنه ديام.

وتدور الوحوش بلا كلل لتبدأ من حيث انتهت دون أن تخدش

Twitter: @ketab_n

نعومة العلبة. حين رفعت الغطاء الأكثر شفافية، أدركت مقدار فهمها الخاطئ لعالم السيدة أوليفر القادمة من بلاد الضباب. فتقول انها اعتقدت منذ عدة سنوات أنها محاطة بخرائب وفرت للناس جهد حفر المراحيض التي ينادي بها أوليفر. الغطاء الذي يؤكد حضوره باللمس لأنه مصنوع على شكل قبة منجّمة من المرمر الأزرق تمثل في الغالب قبة السماء، تجري تحتها العربة والوحوش بإمرة سوط رجل وسيم ذي لحية ممشطة، يجلس في وضع جانبي وأمامي معاً، وهو بهذا الوقار والهيبة.. عضلات الزند، الحاجب المستقيم فوق حبة الحجر، الوشاح المطرز والشكل العام. يتناول سيد الوحوش رمحاً ليصنع الموت ثم يقدم احتجاجاً ضد الموت (تصبحون على خير) ما الذي يستحق الكلام بعد إغلاق الباب.. محاطة بحائط القماش وصندوق الملابس العسكري. وهناك خلف النافذة تستفيد الثعالب من ضآلة الضوء لتبحث عما تبقى من عشاء الليلة. يقظة متواصلة حتى... فالسوط يلقط شَعر الوحوش وينثره في الهواء... وهي مليئة بالعجب!!..

* * *

انحدر الولَدان إلى الدغل مصطحبين عدتهما من الحبال والهراوات، وكانا قد أُخبرا من قبل عدة أشخاص برؤية أكبر خنزير بري في أورا.

كان الدغل ستراً للممارسات غير الشرعية بين الحطابين والحطابات. هناك بقع قد نظفت من الأغصان عمداً وفرشت برمل

Twitter: @ketab_n

ناعم، وعليها آثار لحظات جنونية محفوفة بخطر الحيوانات. نجد طبعة الفـــأس والمنجل على الرمل الرطب، إضافة إلى خطوط عميقة تدل عـــلى رفسات. وكان أولاد الحداد ـــ لكثرة معاشرتهما للدغل ـــ يعـــرفان مـــن تكون المرأة، حيث يقيسان بالحبل المسافة بين طبعة الضفيرة وبين آخر مدى وصله الكعب في لحظات الهياج... وهناك عـــندما تـــأتي النساء إلى أبيهم لشحذ مناجلهن وفؤوسهن يعرفون أطـــوال قاماتهن من خلال علامات طباشيرية على الباب، إذ تقف النســـاء بالانـــتظار على الباب عادة مخافة أن يدخلن على الحداد. فيجدون الدليل الكافي الذي يدينهن.. كنّ يشترين صمتهم بتكرار عملية الرفس في الأدغال معهما..

انهما ينتظران الآن أكبر خنزير، وقد هيأا لذلك عشرات الأطفال الذيـــن يحملون علب الصفيح ويدخلون من طرف الدغل، يدقون فتنهض الخنازير، وتتقافز الحيوانات أمامهم..

أما الحداد فقد كان يعالج قفلاً مستعصياً وهو يعاني آلامه الخاصة. فلا أحد يعرف حكاية خصية الحداد المتورمة. كانت خصيته اليسرى تزداد انتفاخاً وحجماً، تتقلب بلونها من الأحمر إلى الأسود إلى البنّي، وكان يقوّس قامته لكي لا يبرز الورم تحت الجلباب.. يقوس قامته، هو البالغ القوة بحيث أنه يستطيع أن يبطح ثوراً، يرفع سقفاً، يلوي الحديـــد وينتصر عندما يتم استدعاؤه لأمر يحتاج إلى قوة. انقضت

Twitter: @ketab_n

شـــهور طويلـــة وسنوات بين رنين المعادن المحمصة، تناقص نشاطه، وصار يؤخر طلبات الناس بخلاف عادته. فكان البعض ينسب الحالة إلى الشيخوخة المبكرة، فيرفض هذه الصفة بشدة. لكنه لم يعد يحتمل الألم والخِزي، لذا فقد قرر ليلاً أن يضع حداً لتلك المهزلة... أركن المطرقة وجلس يتأمل بقايا جمرات الموقد حتى طلع النهار.

كانـــت ابنـــته الصـــغرى سارة تذكره بتراكم المواعيد؛ الناس يســـألون: إذا انتهيـــت من صنع أشيائهم أم لا؟ وأنت تعرف، لقد اقترب موعد الحصاد ويجب أن تكون المناجل جاهزة. قال لابنته: ان بعض المواد تنقصه وعليه أن يسافر إلى المدينة لشرائها. فحزم حقيبته الجلديـــة ورحل ماشياً. لكي يعود بعد يومين بلا أدوات في الحقيبة. لقـــد وقـــف على أبواب الأطباء غير أنه لم يستطع أن يريهم ورمه العزيز الخاص.. لا يستطيع الكشف عن سر رجولته.

اقتربـــت الظهـــيرة، وسكن الناس إلى بيوتهم. هدّأ الحرّ فضول الـــرعاة. فخـــرج الحداد إلى الدغل تغطي الأشواك تدبيره، ولعن القُـــبّرات التي تصعد إلى عمق السماء وتنظر إليه كشاهد وحيد، ثم تزقـــزق في نقطة مختارة، معلقة في لاشيء. ثم تضم أجنحتها وتسقط قرب وبر أعشاشها.

هناك تذكر الأشياء ونسيها، باستثناء الفرن الذي يقترن بالظهيرة، وشـــيش النفخ والعالم فقاعة معدنية.. وفقاعة بين ساقيه: يا الله.. هذه

Twitter: @ketab_n

تســـلية. ثم باعد بين ساقيه وشدهما بعصاه. استل السكين الحاد الذي وضع فيه خبرته. وقطع خصيته بسرعة تفوق حضور الألم.. وهنا تحول العالم إلى اصفرار وتلاشى الدغل. بينما كان الولَدان مشغولين بإيقاع الخنزيـــر في الحـــبال، ربطاه من أرجله ووضعا رأسه في كيس ثم فكا الحـــبل من ساقيه وأطلقاه، فظل يجول بحركات هوجاء وجنونية حتى توقـــف أخـــيراً، وصارا يعذبانه بعدما ربطاه ثانية، يغرزان العصي في مـــنخريه، ويضـــربانه بالهراوات حتى سقط.. في اللحظة نفسها التي ســـقط فـــيها الأب الحداد من الإغماء. ووجده مطاردو الخنازير من الأطفال والحطابين. نصفه الأسفل عارياً، ساقاه متباعدتين ومربوطتين بالحـــبل والعصا، وقد تجمع الذباب حول خصيته المقطوعة.. ووقف الجميع حوله. انحدر الناس من تلال أورا لرؤية الحداد صريع صنيعه، فانتـــبه الولَـــدان ياسين ومطلق إلى الناس المتجمعة في طرف الدغل، أسرعا إليهم، فوجدوا أبيهما بلا خصية وحملاه إلى البيت.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

ـ ٦ ـ

تفاحة ابنة الحداد الكبرى تسمع قصة أبيها، فتقتل زوجها وتعود إلى أورا. الحكاية أبعد بكثير من تاريخ زواجها حين أعدت لعريسها عشر ليال سوداء من الصراخ والدفاع المستميت عن غشاء رقيق، حيث سمع الناس في أقصى القرية صراخها كلما اقترب منها، ولم تنفع كل المحاولات لإقناعها بعكس ذلك، لا أقراص المُنوّم التي دُست في طعامها، وكانت كافية لقتلها فلم تنم، ولا محاولات العجائز بإقناعها أن العملية سهلة، وأن لا ألم فيها على الإطلاق، وانظري إلى النساء يتزوجن وينجبن، حتى اتفق بعض المقربين من العريس بربطها على جنبات الغرفة بالحبال؛ باعدوا ما بين فخذيها، وفرقوا يديها لكي لا تدافع.. وهكذا تم كل شيء.

لا أحد يعرف بالضبط كيف وافق الحداد على تزويجها، فكم وصفوا خجله الشديد وهو يعد نعاج المهر..

أما سارة، ابنته الثانية، فلم تخرج إلى الناس عدة أشهر، بسبب سماعها صرخات أختها الكبرى، حتى زيارة الأخيرة لها. الحق أن الفتاتين شهيتان. نعرف أن لهما لحم متين. أرداف ونهود قوية، وسيقان ممتلئة صلبة.

Twitter: @ketab_n

لم يكن أحد يعرف حكاية الخصية المتورمة حتى يوم الفضيحة التي عادت على إثرها تفاحة إلى أورا، وتحولت فجأة بعد رفسة اليأس إلى امـــرأة محاطـــة بالاستنكار العشائري وكأنها ولدت من نسل بعض الحكايـــات القديمـــة. شهدنا نضالها التدريجي ضد الموت التدريجي. رفســـة موجهة ـــ قبل حلول الزوال، كبعض الناس الذين يرفعون إنسانيتهم إلى الأعلى، بطريقة أو بأخرى. يخرجون من إطار الجذب الاجتماعي ويدخلون في صفحات الأسطورة.. مثل هؤلاء يمكن أن نلتقـــيهم في كل مكان، ونادراً ما نلتقيهم في التجمهرات العامة.. فنشـــعر بـــالغيرة الشـــديدة لأنهم عبروا ممر الإلزامات ودخلوا في المختارات... هي حكاية هذه المرأة التي لا تختلف من حيث المظهر الخـــارجي عـــن نساء الجيران ولكنها تحاكي طموح بعض الرجال الطموحـــين.. صـــنف يذكرنا بعمق التشتت.. لأن أحدنا يعلن عن رغباته بصوت مرتفع فنسميه متمرداً، فيما كان الأمر أكثر عجباً مع تفاحـــة لأنهـــا مـــن فصيلة الذئاب الحمراء الرقيقة. بكامل هيئتها المخاتلـــة. ورثـــت عن العادات بعض علامات الوشم الأزرق فوق خديها البارزين، خصر ضامر، وحوض خصب يرفع مسدساً بشكل علـــني للدفاع ضد عدم الفهم، وللتسلي بقتل الحيوانات في لحظة السكر على مقدمة السيارة.

في زمن بعيد لا يدركه أحد الآن، جاءت هذه المرأة إلى أيام الكذب

Twitter: @ketab_n

فتزوجت زواجاً عادياً، بالإكراه، من رجل عادي. كان يباعد أضلاعها كل يوم فتحتمل، يباعدها عن رغباتها فتحتمل، ويباعدها عن التصرف الخاص، الحب الخاص، أحقية تفحص التلف اليومي، الحديث الموضوعي عن الجنس، ونقد سلوك الكراكي على الشاطئ. فقامت في الليل ــ بعد أن وردها نبأ قطع والدها لخصيته ــ.. ليل مقمر خاص بثعالب الدجاج الأليف. وكل شيء يتحرك بسحر خاص، مدفوع بالجوع أو بالأمن. أو تأكيد الوجود. كان الشجر على حافات جداول القرى المقمرة يلامس الأرض ويمد سلاله للضفادع ذات الأصابع الدائرية. فخشيت أن يستيقظ بفضل عواء ذئب، أو نباح مفاجئ.

كانت الليلة هائجة تنثر الكائنات الخفيفة من أرض إلى أرض. والريح الصافية تفرق ذكر الذباب عن أنثاه، والقُبرة عن صغارها. وينسى الكلب الكلبة فيلوذ ببعض الحيطان.

تأملَت قبضة فأس الحطب وتأملت رأسه، فوجدت علاقة حميمة بين الشيئين.. فقاربتهما. وانتفض الجسد إلى الأعلى، دار دورة اللولب ثم سقط قرب الباب يوزع دمه في أنحاء الغرفة. ثم جاءت تجربة السكاكين الحادة المعلقة بمسامير خشبية. قطعت زوجها قطعاً صغيرة.. ثم قطعاً أصغر.. وضعته في الكيس مع بقايا قشور البصل، وغمسته في النهر.

حدثٌ حرّكته غريزة معينة ــ نيكروفيليا ــ القبائل البدائية، في لحظة من لحظات نوم العدالة، حيث كانت التقاليد الأصيلة تشيخ،

Twitter: @ketab_n

وكل شيء قابل للتغير، وكل فعل صغير بطولة. وكان قطاع الطرق والقتلة يقسّمون الرأس إلى رأسين ويختفون في الجوامع ليلحقوا بصلاة الصبح.

وكانت تفاحة تحاصر خصرها بساعديها وتقف على عتبة الباب، تعلن خلف مسدسها عن تفاصيل الفعل الليلي. غابت قوانين العشائر، وظلت الذئاب تحوم حول البيت.. حدث سيصبح بعيداً جداً. لا يحتاج كثيراً إلى القشعريرة.

لكل ذكَر كرتان غير ان إحداهما، يحدث أن تنتفخ بعد الغبار وتحمر بعد السواد الطبيعي. فيراهن على حِدة سكاكينه بقطع زند أحد الرجال على أرضية القش الجاف فلا بأس من مجيء بعض الثيران، أولئك البشر الذين يحبون رنين الحِدادة، تلمس أسرارهم فينهضون إلى العِراك.

ولابد من هذا الحياء بلا أي خجل معروف لدى المفتول بالحدادة، مهنته الطبيعية، مهنة العازب القوي، أب الولَدين القويين المهووسين بالخشونة والدغل وصيد الخنازير كتكوين ضدي بسبب حيوانية أبيهما. وأب الفتاتين: إحداهما ذبحت زوجها فقيل: لا عليك، ابنة حَداد، لا بد أنها ابنة الحداد الأعزب.

حياة ذلك الحداد مع قِدر وثور وسكين وثلاث ملاعق وصحن.. يعتز بها كما يعتز بالمطرقة، يعقف الحديد، يدمره، يحمصه بالمنفاخ

Twitter: @ketab_n

فتضـــيع أســـئلة أصحاب الحاجة: هل بإمكانك أن تصنع سكيناً لا يُثـــلَـــم؟.. هل تقدر أن ترفع هذا القِدر. ويرد أحياناً بالإنكليزية:.. Yes.. و Oh, . لأنـــه تعلم الطَرق من بعض الشركات حتى سن الأربعين وهو سن المراهقة بالنسبة لأصحاب المهن الشاقة.

أما سارة فقد اختزن ديام عنها صورة الحلم بالسفر، ولو إلى الجحيم مؤقتاً، حيث يمكن نسيان تناسق اللحم الطفولي، بالانصراف إلى التركيز المدمر في العينين، على شكل انعطاف أو جوع تاريخي مثلاً.

وربما جاءت في يوم ما، سارة، تلك المعجزة، فدخل الجمال كله إلى الغـــرفة، حيـــث قدر لي أن أكون هنا بنضال مرير.. وبمرارة لتجنب التلامس مع الآخرين، وكان هذا عملي الدائم وسط الفضوليين؛ أتعلم كـــيف أعـــتزل. أسدل الستائر والمسمار المعوج في إطار الباب بمثابة سقّاطة، والميدالية المشنوقة على المقبض لسد ثقب المفتاح، مخافة العيون الـــتي تختلف عن بعضها بعض بالنظرة وطريقة التساؤل والدهشة لحظة اكتشـــاف شـــيء خطير: رجل يحتضن امرأة، عبر ثقب الباب، والمرأة صغيرة ونافرة، والمرأة منفعلة ونافرة بعض الشيء لأول مرة، بينما يقوم الرجل بتهدئتها، قبل أن يكتشف حيلة الميدالية المشنوقة، ويصنع لنفسه مجموعة من الشكوك حول إمكانية اكتشافه في وضع كهذا.

كـــان ينطق اسمها بلوعة ورجاء: سارة، سارة. طريقة السيطرة.. جزء مـــن الســـيطرة على القرار، لكي يُقنع المتلصص عبر الثقب ـ إذا كان

Twitter: @ketab_n

هـــناك من يتلصص حقاً ــ بأنه منفعل حتى في هدوئه، وانه وحيد، يحلم فحسب. يفضحه الاحمرار ولوعة التمسك بها وهي تذوب في فكرته عن نفســـه: الأنانية الخالصة، وكبرياء الذَكر، وكل هذا يعني انه مازال على أرض أورا.. أحـــد الجـــيوب الطبيعية المهلكة المحاطة بالدغل والوحوش، كاختـــيار الســـكن في مقبرة والخوف من الأشباح فضلاً عن السكون الشـــفاف الممـــزق بعيون حيوانات أتيح له أن يرى ذيولها تمرق من بقعة مظـــلمة عـــبر بقعـــة اقل ظلاماً إلى بقعة مظلمة أخرى: طيّة أرضية أو مـــنخفَض مـــثلاً؛ حيث كانت الوديان تنحدر لتفتح نفسها على الدغل ومساحة الخنازير التي لا تكف لحظة عن مهاجمة محاصيل الناس المتلصصين عبر الثقب قبل اختراع فكرة الميدالية المشنوقة بالمقبض لسد الثقب نفسه.

بعـــد كل تلك المحاولات، والفكرة التي سيطرت: فكرة دخول الجمال في الغرفة، كَتب ديام: إلى عشيرة من النساء... إلخ.

انتهى التلصص وجلسنا بمواجهة الحائط، تتشابك أيدينا، وكانت قـــد افتعلت الانشغال بالراديو، فهي لا تبحث عن أغنية معينة، ولا عـــن بـــرنامج يـــتحدث عن دعامات الكونكريت وتكاليف إقامة السدود، ولا حتى عن برامج المطربين الهواة، بل تبحث عن الصخب الذي يضبب ذكرى حكاية والدها الحداد، عمي أدهم.. أو صخب يخفف من سطوة كلماتي التي أخترعها في صحراء السنوات الفقيرة؛ عن الأنثى التي تكون بمثرلة راديو لاستقبال موجاتي الذَكَريّة، سطوة

Twitter: @ketab_n

الحس المدمر نظراً للحاجة إلى معاناة حسية.. إذن، فالانشغال بالقلم أفضل بكثير من الانشغال بمفتاح الراديو، والقلم وسيلة أفضل لقول الكـــلمات التي ستغدو عادية في يوم من الأيام، تتحول إلى حركات جذب ونفور.. وصفع إذا تطلب الأمر.

صفع بقصد الغَزَل المحموم الذي لا تتقبله الأذن بسهولة، ثم انشغلت بالورقـــة، وهذا يعني انها بدأت تستجيب. كنت أنظر إليها، فتقول: لا تـــنظر إلي. وأقول: أنتِ جميلة.. جميلة. ثم تجرأت بصعوبة على استقبال هبة وجهها الذي منحه الله لي. حين أحطته بكفيّ كان دافئاً كالرغيف. تناولتها ونسيت الحائط والراديو والقلم. فرّغت نفسي من كل فكرة.. عـــلى وشـــك البكاء. أشعر بضيق المكان.. بضيق نفسي. لم يكن ثمة موضوع بعينه يصلح لبداية قصة أعرف انها ستكون قصة حب. وقفنا، أنا وهي، بعد عذاب الانتظار القصير، في لحظة واحدة، وجه أمام وجه، يخـــبرنا حدس واحد؛ أن نجرب دفء بعضنا ونلتصق، فكانت تهتز بين ذراعـــيّ، وكنت أهتز حولها، وأستعمل ضعفي للتأكيد على حُبي. لقد نســـيت بأنني نسيت أنني ذَكر. فلم أذق طعم العاطفة بهذه الكيفية من قـــبل، هولهـــا، جســـد الأنثى الممغنط، حرارة العثور بعد الظمأ، تعب الانتظار، واكتشاف سطحية التجارب القديمة.. إنها لي.

كانـــت لي قبل أن تكون لي في هذه اللحظة بالذات، ربما منذ أن أنقذتهـــا مـــن الطوفـــان فوهبها لي العم أدهم أو.. ربما هي لي منذ

Twitter: @ketab_n

الطوفان الأول فوهبها لي نوح على ظهر سفينته.

تمنح نفسها بكرم فائق، وتقول: كفى. وأقول: حسنٌ كفى. حين سمعت تنفسها المرتفع هزمني الإشفاق والرقة الغالبة، فسقطنا معاً على الأرض اثر مشقة الخوف من اللذة، والفشل في أن نقلي بعضنا بزيت الحاجة إلى المثول بين يديّ من نحب. سقطنا معاً، بحركة واحدة، متشابهة وأمسكنا رأسينا للتعبير عن حالة دوار، فاكتشفت اننا قد نزعنا أقدامنا لتطير قليلاً تحت سقف الغرفة، ثم نسقط بسبب سؤال سخيف: ما الذي دفعكِ إليّ؟ وأعدت السؤال بطريقة أخرى بعد صدمة الهبوط، فعلمت انها ضائعة في حطام تجارب صغيرة ومحاولات انتقاء، ضائعة في الخدعة وفرص التسلية.. في الوعود واحتمالات ضعف الوعي، والشرود، والهروب إلى الحلم أو النوم، فلابد أنها قد بعثرت صدقها وقوة عواطفها في تجارب وقتية، لأجل تمشية الوقت، لأجل انتظاري.. لأجل انتظاري. وقلت انني خائف من أن تخاف من الالتزام بعدما ترى النساء تتزوج بشكل طبيعي. عليّ أن أقاتل نتائج خبرتها التالفة، وأحفر شعورها بقوة الخير في أن نكون معاً.

تلك المرأة، حين أصف، وجه ظل مصموغاً، ثابت النمو منذ عشر سنوات على ما أظن. لم تخربه فضيحة الأب ولا تجريب المكياج أحياناً، ولا الانكسار من ارتكاب خطأ.. مخافة الخوف من الذنب الذي يشبه الخيانة. وجه يعيدني إلى ذكريات فارّة.. كلعبة (الطوشة) والعري المشترك

Twitter: @ketab_n

للصبيان والصبيات تحت الماء حين يعتقد الكبار انه عري بريء.

يتبدل الوجه لحظة اللمس.. إلى وجهين ينافسان بعضهما في الحضور، يسكبان بلا مقدمات حلمية، دفقة من الشعور الهائل فيما يخص قوة الشيء ونسيان الزمن. قوة الضحك بعد الحصول على... شرود شبيه بالتبخر. يذهب الكلام، تذهب الأماني الصغيرة في الحصول على... ويبدأ الاستغراق. فلا أتأكد من وعيي حين أتأكد من وجودي حتى أحاصره بكفي. اقبّل الظل.. شيئاً عزيزاً. سنفترق بعد ساعة مثلاً. فراق الوجه بصورة دائمة. الفِراق، منذ زمن، كلمة للتعبير عن أشياء كثيرة، ليست أبداً كخسارة المال، ولا خسارة الروح.. بل بمعنى أننا نعيش حياة ناقصة. أشعر انه سيذوب حالما أضع يديّ، غير أنه يزداد حضوراً وإشراقاً، ويتسع ليحتل مساحة المكان فأضطر أن أباعد يديّ لأحتويه، بسعة مساحة الحائط. طالما أنساه حين أتعمد ذكره. ولكنه يأتي كالانفجار في لحظات الشرود والعمل المضني للذاكرة. أمسكه فيقفز إلى مكان آخر. أشير (هنا) فيتحول إلى (هناك). وأقول (هناك) فأجده (هنا).. أين؟ مرة قابلته تحت الغطاء، رأيته في الظلمة.. ومن يحتمل يا ربي؟.

وجهها الذي تحدثت عنه، مُضاء بنافذتين محددتين على الدوام بضوء أسود، غارقتين على الدوام بسهولة الحركة واصطياد برق الشهوة. عينان مناسبتان لوجه مناسب لها، مناسب لي لحظة نزع الأقدام

Twitter: @ketab_n

والتحلـيق تحـت سقف الغرفة. لولاها لما استطعت أن أقف في لحظة تـردد.. أُفضـل أن أشـتهي وأنتظر، وأُفضل الانتظار على الحصول. يُذكـراني بعينيّ الباز في لحظة تتجاوز التحديد، وصف فوق ما أحتمل. هـناك عالـياً، تطوفان في فضاء النفس المخلخل، ثم تنقضّان فجأة نحو مركـز القلـب. فأشعر بدغدغة لذيذة، أشعر بجرح أحبه. لقد صرت بفضل عينيها عديم المعنى.. لقد فرغت من صراع الطموح الذي يسوق الـرجال عادة نحو الهلاك، وأتاني النعاس فهويت بوجهي.. وهويت... فاستقبلني الجسد الذي يحتضن اليدين.. الشفتان يا إلهي!!.. مشدودتان من طرفيهما كحافة بدء المطر. مشدودتان بابتسامتين غامضتين تنذران بكارثـة قريـبة.. كارثة الارتعاش بلا توقف. إنها ترميني في الانتظار. وجهها يعدني بالسعادة، يذكرني بفوات الأوان حتى أفقد وزني، وأوشك أن أصرخ، غير انني أتحول إلى غيمة.. أتحسسني فلا أجد.

* * *

أذكـر انني عندما عدت إلى أرض أورا، بعد محاولة يائسة لقياس محيط الأرض بـالخطوات. قلـت: إنهـا بقعة مناسبة للموت، سأضع رأسي وأسـتريح. ربما بقي لي بعض الوقت لكي أحاسب نفسي. كان ذلك في أول ظهـيرة مـن آب، غارقاً بالعَرق، حيث يتمشى آب حول المساكن مواصـلاً عملـه الدائب لغلي الأشياء. سمعت خطواته على شكل لهاث وسراب يرفع قشرة الأرض إلى مستوى الجحيم، فلم ينفع دلو الماء البارد

Twitter: @ketab_n

لســـحق الظمأ، ولا محاولات تدخين السجائر لأجل معادلة شراسة الحر الخـــارجي. آب الذي يشتد جنونه لحظة اشتداد الذكريات، والذكريات تـــاريخ الشخص المُشرّف، بما في ذلك الأخطاء والحماقات والأماني التي تـــأخذ شـــكل الأســـطورة، فإذا أردنا أن نتأكد من أننا أحياء؛ يجب أن نـــتحدث عـــن ماضينا بلا توقف. نروي قصة حياتنا لأننا لا نعرف حتى التفاصيل التافهة.. أقصد عدد مرات التبوّل، والوقت المصروف في النوم، ووســـائل قتل الوقت لكسب البدانة الممكنة كعلامة على المرض لكسب التقدير الاجتماعي.. فكرة انتفاش الديك لحظة الخطر.

عشـــت تحـــت الخطر، قانون أورا، لكي تكون رجلاً عليك أن تســـعى إلى تصـــغير رجولة الآخرين لتبقى الرجل الوحيد، فتصبح وحـــيداً في المجابهـــة لأنهم سيسعون إلى تصغير رجولتك، يتحدثون ضدك، لأنك قلت: هذه المرأة حبيبتي، فعليك أن تصمد دفاعاً عن اعـــترافك بها. حدث ذلك تحت وسائل خاصة، منها عُقد الشعور بالتفوق، ونقمة امتلاك اللغة الخاصة لكسب النساء ذوات السمعة الســـيئة، نقمـــة الحكي اللذيذ، منطق العداوة والغيرة. لماذا أنتَ: (نعم)؟ ولماذا نحن: (لا)؟. يجب أن نكون: (نعم). وأنتَ: (لا). فمن أين لك البذرة التي تتحدث عن الخير.. ستكون واحداً منا بعد أن تـــرى التماع السكين في الظلام، في زاوية.. بطُرق أخرى للتهديد كالورقـــة المـــثقوبة بطلقة مسدس، كالظلال اللّصيّة الساقطة على

Twitter: @ketab_n

الســـتارة آخر الليل، الحبل، أو شكل السيف، أو هوس التحري في الطعـــام بحثاً عن المدسوسات، الدبابيس، قطع شفرة الحلاقة، أنواع الســـيانيد والزرنـــيخ والأعشـــاب المحضرة محلياً، سموم القوارض والحشـــرات، وتمثـــيل المؤامـــرة كالتشاور الخبيث بين اثنين تشير أصـــابعهما إلـــيك.. أشياء كثيرة كهذه، تجعلك واحداً صالحاً لـــ (أُورا) دون أن تفكر بالارتفاع على الآخرين ولو بالطول الطبيعي.

عُدتُ أورا لأرتاح بعد تجوال الطموح المتعدد، عدت بعد التعب لأدافع عن مساحة من الأرض كافية لاحتواء جسدي، وكان أملي أن أجد جدنا دهوث وقد بُعث من جديد.

فـــيما يخص ليل أورا الهادئ المثقب بأخبار الأرواح والحيوانات الغريـــبة والجثـــث الغريقة كل يوم، والحذر من قفز عقرب الساعة وضـــجيج الضفادع، والخوف من منظر الجواريب المنشورة وسط الغرفة. في أول يوم من أيام آب، ساعة العودة والسؤال عن الغريب العائد وعروق القرابة.. عودة مصحرة بلا أفكار هامة. منذ شهرين أفردتُ أصابعي أمام وجهي لأتبين ما إذا كنت على قيد الحياة حتى الآن، ودفعت نفسي مجبراً إلى كتابة مواعيد انصراف الرعاة ومواعيد رجوعهم وساعة سَوق الأبقار إلى منصة إعدام القصاب، كل ذلك مـــن اجل فهم أورا. كان القلم ميتاً بين أصابعي كوتد، وليس ثمة ازعاجات فيما يخص مسألة الوجود، فقد اعتبرت نفسي ميتاً بنبض.

Twitter: @ketab_n

— ٧ —

بعـــد قطـــع الخصية حدث تحوّل جذري في شخصية العم أدهم الحَـــداد؛ مـــن العـــنف والقـــوة إلى الرقة وممارسة طقوس السحر والشعوذة بدل الحِدادة، بينما تحول ولَداه ياسين ومطلق مباشرة من تسلطهما على الحيوانات إلى إذلال أبيهما بشتى الأشكال.. إلى حد وضـــع قدح الشاي على صلعته وأمره بعدم التحرك لمنع سقوطه. الأولاد الذين كانت شراستهم مخصصة لصيد الخنازير، ومطاردتها، وصـــيد الطـــيور ليلاً وأكل بيوض البوم، وأكل الدعلج واليرابيع. كانوا لا يستطيعون التكلم أمام أبيهم، ولا يستطيع أحد من الناس أن يخبره عنهم. قطع الخصية قلب الوضع تماماً وجعل عنفهم ينصب عليه. لقد تحول التكوين الضدي.

فـــيما بـــذل ديـــام محاولات مستميتة لإخراج تفاحة من صدمة

Twitter: @ketab_n

خدمة لها، مقابل خدمة منها. تلتجئ إلى غرفتها البسيطة وتبكي، تتألم ولكـــنها تبتســـم للجميع، تحيّي الذين يجرحونها. وكانت تنام بسرعة ذاهبة إلى الكوابيس، فلا بديل عن القلق غير النوم أو السفر. فتخيلتها ممتلئة الجسد، غبية.. ولابد أنها مليئة بالأمراض.

لم أرها منذ زمن بعيد، منذ تزويجها إلى رجل بعيد في قرية بعيدة. سمعت عنها الكثير مما لا يتسنى لرجل مهذب أن يسمعه عن امرأة، ولذلـــك أحببت أن أراها. حين وضعَت أول قدم لها في أرض أورا بعـــد أن قتلـــت زوجها، وأرادت أن تراني لأنها بحاجة إلى مخلّص. جـــاءت بحجـــة معينة، وعندما عرفوني بها، بطريقة مستنكرة، مليئة بالسخرية والتلمظ. صُعقتُ وجلست كأنني وقعت، فهي تشبه سارة أو أن سارة هي التي تشبهها تماماً، فاستعملت سلاح التدخين لإخفاء ارتباكي، وبنظرة فاحصة ومدببة.. هذه النظرة مسحت كل ما قيل عنها، كأنني أتعرف بامرأة أخرى غير تلك الضحية القاتلة.

كانت الفكرة في تلك الأقفال التي يصنعها الأب، والتي لا يمكن فك اشتباكها بسهولة. هي هكذا، كأنها مقفلة بأحد هذه الأقفال، لم تـــتزحزح عن خيبتها بسهولة، مع انني اعتبرت أمر إقناعها مسألة نجاح نهائي يعوضني عن جميع الفشل الذي لاقيته في مواهبي المتعددة.

أخذتها بسهولة، أولاً: بطريقة نسيان الجسد، عكس طريقة جميع الـــرجال الذين أنكرتهم لهذا السبب، وجميع الرجال الذين أنكروها

Twitter: @ketab_n

بعد أن وهبتهم جسدها ببساطة.

ابـــتدأتُ بخطـــوة هادئة، أُعرفها بأن القيمة الأخلاقية هي فكرة يأخذهـــا الإنسان عن نفسه، وانها ربما.. قد أخذت فكرة سيئة عن نفســـها بمساعدة كلام الناس طبعاً، وأنتِ يا صديقتي، يا ابنة عمي أنظـــف ممـــا تتصـــورين، فمن حق أية امرأة أن تبحث عن الرجل المناسب لها، وعندما تكونين بريئة تسلمين نفسك لمن يقول: أُحبكِ، بأمانة وإخلاص، فأنت بهذه الطريقة أكثر نظافة منهم جميعاً، لأنكِ لا تدرين أن أحداً سيخونكِ في يوم ما.. لأنك تفترضين أنكِ ستظلين وفيّة وأنكِ أحياناً تحاولين التصحيح.. و.. وهكذا.

كانت مُـــقـــفَلة تماماً، وجدناها في قطعة صعبة أو ملوثة من هذا العالم عندما حفرنا، بعد سنين، مكان كوخ أبيها: بقعة الكي وحفرة السندان. حفرنا متراً، مترين. مازال التراب متفحماً. ووجدنا آثار مخـــترعات: أقفـــال بميكانيكـــية بسيطة، صدأت، التوت، وما عاد بإمكان أحد تجريب مفاتيحه لإقناعها بفك الاشتباك، سوى الطَرق، والطَرق وحده يفتح الجوانب المصفحة. وجدنا طبعة الحرف الأول (أ) مـــن (أدهـــم) اسم الحداد ذي الأدوات البسيطة. أب لولدين شرســـين انقلبا ضده، وفتاتين في أعمق ظلام الخجل الموروث عنه.. ذلـــك الذي يتفجر في السلوكيات بعد الكبت وكأنه يتصارع مع الحديد. لتفاحة منطقها ولكل واحد من أبناء أورا منطقه.. لا أدري

Twitter: @ketab_n

هـــل لهـــم منطق ما فعلاً؟.. أناس.. يهوون إلى الأعماق.. يهوون، طيـــبون أمام الطوفان الثاني، زناة، ملائكة، شياطين. أسمع صرخات غـــرقهم عن بعد، أسمعهم يعشقون ويهمسون لنسائهم في كوابيس الـــنهاية، يقاومون بعناد، بلا جدوى.. مدافعين عن تاريخهم وجذور طفولتهم المالحة، عن مشاريع الدفن في قطع الأراضي الموروثة، عن السهل قرب الجبل. يتفككون أكثر عند حلول المساء، يسألون عن بعضهم بعض.. ويكيدون، ينصبون الفخاخ.

*　　*　　*

مثلما كان لقضية قطع الخصية أثر كبير في تبدل طِباع العم أدهم الحـــداد وطـــباع أبنائه، فقد تبعت قضية التغوط على دكة العرش تحولات كثيرة، تلك القضية القديمة التي حدت بأوليفر إلى التفكير في موضـــوع الغائط وجنون دعوته الناس للتغوط في حُفر خاصة أو المراحـــيض، ومناقشـــته مع زوجته، التي تسخر منه وهي سكرانة، والحملة المضادة التي قادها أدهم الحداد حين كان يوقع بقضيبه إذا غضب، ويقنع الناس بأن مقاعد التغوط التي جاء بها الإنكليز انظف من أوانيهم... إلى أن فشل أوليفر في مساعيه وعمد بعدها بزمن إلى ســـرقة (ثـــور مجـــنح) عن طريق دفعه بعجلات خشبية إلى النهر بمســـاعدة أولاد الحـــداد، فصُدم آدم بالسرقة وقرر ترك العمل في الآثار مع أوليفر واكتسب عادات جديدة، النوم، ورفض الاشتراك

Twitter: @ketab_n

في مسابقات الغطس، واخذ يقضي الأيام برعاية الثور الحي في بيته، بينما حل ولده ديام محله في العمل مع أوليفر.

كـــان ديام ضائعاً بين أكداس الفُخار ورفوف الكتب، في هواء الســـيد أوليفر المشبع برائحة الشمبانيا، والفوضى التي تهز أطناب البيـــت، وعُري الأواني الملكية التي وصفها بالمكتشفات الهائلة قبل لحظـــة فوران الخمر في عروق السيدة المدمنة، عندما تعبر عن شوق وحشي إلى الضباب الإنكليزي وتنظم جدول الشتائم ضد الشرق، فتتناول الاكتشاف قاذفة به وبأحلام زوجها " أوليفي " المدلّع.. إلى الجحـــيم، كما تقول في كل مرة، فيتلقى السيد أوليفر التزال بروح الـــرجل المتحضر، ويقدم لها كأساً.. كخطوة أولى لنقل العصبية من خارج إلى داخل بدنها.

كان ديام هناك ينتظر عودة مديره الذي أرسل بطلب والده لأمر هـــام كما قال، ولكن يبدو أنه قد نسيه بين الأشياء، وذهب ليزرع نفســـه على إحدى الحافات الصخرية، يراقب غبار الأغنام ويتذكر ضباب لندن المحمل برائحة اليوريا... ونفايات نهر التايمز.

يســـبح هنا في فضاء الصمت المفزع المهتز الذي يدفعه إلى تذكر التفاصيل الصغيرة من حياته دون التفاصيل الكبيرة، ويشعر بوحشة حـــيوان ظل وحيداً بعد الوباء. بينما كانت السيدة تطلق شخيرها الكحولي داخل الحمّام.

Twitter: @ketab_n

لم يـــنس أولـــيفر، ولكنه كان مضطراً لنفش لحيته فوق الخطوط الدارســـة لعـــربات آشور، محتاراً من أين يبدأ كمن أضاع إبرة في القش. لقد فرض على نفسه نوعاً من النظام حتى لو كان هذا النظام وهمياً، وبخلاف ذلك فإنه يشعر منذ سنوات طويلة قضاها هنا، انه لم يعد إنكليزياً كما يجب. (مدفوعاً بحلم طفولي قديم... نعم) يجوب كـــل يـــوم مستنقعات الري قبل انسحاب البعوض، ويجهد نفسه لتفسير الظواهر الصغيرة، بعدما كان محاطاً طول الليل بقطع الفخار، والكتب التي تتحدث عن قطع الفخار، مستعداً لقتل نفسه مقابل أن يدخل في إحدى صفحات الموسوعة البريطانية.

عـــرفه البعض بتلك العادة. سروال أبيض ذو جيوب وعلامات نحاســـية، وقمـــيص مزخرف بصور القطط والعظايا المنقرضة ذات المناقير، والكلاب ذات الأرجل القصيرة منثورة بغير ترتيب الطبعة المكررة لجملة: (مع تحيات جمعية الرفق بالحيوان) ـــ (روثمان كنك ســـايز.. OK..) مـــلاك حائر سقط خطأً من أحد الكواكب. انه سيصـــل قريـــباً إلى نهاية الفكرة وله عدة جيوب بعضها في الحذاء لوضـــع فرشـــاة الأســـنان في أثـــناء الرحلات التي تتطلب جهد العضـــلات. لكنه توصل في جولاته الصباحية أخيراً، إلى فهم السر الخاص بعملية إنبات بذور الباقلاء، فهو يعرف شيئاً عن كل شيء. (ويعـــرف أنه لا يعرف، كورتز، كورتز، كورتز.. نموذج غريب في

Twitter: @ketab_n

غابات سرقة عاج الفيل، والمطر الدائم، وشهيّة الموز.. كورتز..)[1].

بعدما أعياه البحث عن أسرار صناعة العطر الآشوري الذي مازال شذاه يملأ زوايا خرائب المملكة على بعد آلاف السنين من لحظة انهيار مكتبة الرُقم. وحوّل اهتمامه تدريجياً من شلمنصر وسميراميس إلى آدم وديامة وجادالله وخَلف، فتأكد أكثر من مرة أنهم حقيقيون من خلال رسم ظلالهم على الحائط وهي تمر صباحاً بشباك غرفته، وتحيتهم: صباح الخير (كود مورننك) للمجاملة، لأنهم يستيقظون بعد صيحة الديك الأولى. كانت الظلال تلامس السجادة وتمسح لوحة: (نحن الرجال المجوفون.. ننحني سوية.. واحسرتاه..)[2] وتستطيل حتى زاوية السقف، فيعرف المارين من أشكال أنوفهم: (عبدالله؛ أنفه شبيه بعصفور ميت. هذا سعيد؛ أنفه شبيه بظل ولاعة التبغ. هذا فهد؛ شبيه بعلامة شركة روز رايز... إلخ). حكاية العادة اليومية لتزهة السروال الأبيض ذي الجيوب، وما عداها فإنه ميت تحت تأثير التهديد بشرب غالون من الكحول إذا لم يعطها بعض الاهتمام.

حين انكسر النهار تذكرها لمجرد أن رفع رأسه فأبصر بيته عبر الغبار؛ جميلاً في أقصى المنعطف وصاح مدهوشاً:" لديّ بيت.. لديّ بيت في الشرق". وللشرق غرب أيضاً. هذا البيت الذي يتميز عن

---

(١) كورتز: بطل رواية (قلب الظلام) لجوزيف كونراد.

(٢) من قصيدة (الرجال الجوف) لـ ت. س. أليوت.

Twitter: @ketab_n

سواه من الخرائب بسقفه المنحني ضد اتجاه العواصف. ابصر رجلاً يؤرجـــح ذراعيه بصورة نادرة في الحزن لكي يبرر دخوله، فأعطته الأشعة الأخيرة دفقة من الحرية كأمير أفرغه الحزن من هيبته، بعد أن تخلص من كل إلزام، وهو يقترب (من خط غرينتش.. حيث يبتدئ العد الزمني التنازلي).. يقترب من أشجار الحديقة المفتوحة، ويحطم بـــلا مبالاة أوراقها اليابسة عند حافة رصيف الأحجار، وقد هشّم الظل جسده..(وغاص في عتمة لوحات عصر النهضة..) دفع أكرة النحاس فابتلعه الباب...

مـــازال ديام ينتظر، سائلاً نفسه عن الأمر الهام الذي دفع المدير ليطلب أبيه في تلك الساعة الحرجة.. ساعة هبوط الملائكة؟ فاستاء، لا لشيء.. بل لأنه سيشم في جسده رائحة النفتالين والبيض الفاسد، وقد رآه منذ المصافحة الأولى مدفوعاً بسحر وهم نفسي حول مبدأ الشهرة أو الوحدة، وفق تنبؤ خاص، يرتبط بما جمعه أوليفر من جرار وأبـــاريق فخاريـــة، ضاعت كلها في لحظة سُكر كما ضاع الآثاري المجـــنون هربـــرت من قبل في مغارة تحت القلعة، حيث صار طعاماً للوحـــوش الحجرية والثيران المجنحة... تعبت عيناه وهو ينقلها بين الأشـــياء والكتب وجيوب الفراغ المتكرر. خمن أن ديامة تقوم الآن بتنظـــيم عيدان المقشة، وتعد له الشاي. لقد قطع المسافة راكضاً، متخيلاً في نهاية اللهاث بأن المدير قد دعاه لشرب فنجان من القهوة.

Twitter: @ketab_n

حدث أن رأى نفسه في مرآة المدخل عندما اندفع نحو الموقد، مكان الجلوس المألوف، وسمع شخير العربيدة في الحمّام. اعتقد آنذاك، انه لمح في طرف الحديقة شيئاً ما قائماً هناك إلى جانب نافورة الطفل الجبسي. كان السيد أوليفر يؤكد له وهو يدفع نظاراته بسبابته انهما (ديام وأنا) يلتقيان في شيء معين لم يظهر في سلوك أي منهما. ولكنه شيء سري بالتأكيد " عند ذاك أنسى أنني أتجاوزك يا ديام، بما لا يقل عن مائتي عام من الحضارة..". فلا تسأل ما هي الحضارة؟.. لابد أنها قميص مزخرف بصور القطط والكلاب ذات الأرجل القصيرة، وأنها مرض يتعلق بسيلان الرأس في جمعية الرفق بالحيوان. من ناحيتي: انها: ثلاجة إنكليزية تشتغل بالغاز المُستخرج من كركوك، وامرأة تلتجئ إلى الحمّام في اللحظة الوحيدة التي تكون فيها مستورة حتى أخمصيّ قدميها.. ونلتقي في بعض حالات الشعور بالوحدة.. الوحدة.. الوحدة.. فيقف عن الكلام لأنه نسي ما أعده للقاء الحفار. عندما أشرف بيته الجميل في نهاية المنعطف، وقد ترك الباب مفتوحاً لأن خبرة التطمين هنا منعته من العودة لإغلاقه، فلا لصوص ولا مخربون ولا قتلة (مغرمون بقصائد وليم بليك، وصرعات المتشردين في حي سوهو)[1] و(أنا مجموع ما أقرأ).

كان قرميده القرمزي يلوح عبر محور مرتفع يرد البصر إلى

---

(١) إشارة إلى روايتيّ (ضياع في سوهو و القفص الزجاجي) لكولن ولسون.

Twitter: @ketab_n

المبصـــر، ويوزع ضوءه على الأكواخ المحيطة، لهذا اقترح أن يسميه بـــ(ينبوع ماء العنب) طبقاً لتسمية آشورية.

لقـــد أنبأته صفوف الآس المدفوع إلى الجوانب، السياج الواطئ و(أشـــياؤنا التي نصير عبيداً لها في لحظات الضعف و انه لا يختلف كثيراً عن ديام إلا في جداول المقارنة الأنثروبولوجية، بما أن له وجهاً كوجهه، ومنخرين كمنخريه، وساقين ويدين وعينين وأذنين...

أعطـــى الحق لنفسه، قبل أن يلج مدخل الحديقة، في السؤال عن أحوالـــه الصحية أولاً.. ثم يأتي الكلام الهام. غير أن فرجات ما بين البيوت مكّنته، لحظة وضع القدم على الدكة، أن يرى الحذر الضيق في مساحات الأرض المفتوحة الرخوة الخالية.. صانعة السراب، من أن خطـــراً يأتي من هناك، شيئاً شبيهاً بالحصار، ولكنه ليس حصاراً بالضـــبط.. مكنته من أن يرى في أورا قوة مفترسة أضاعت هربرت من قبل.. وربما.. ربما.. كيف حالك يا ديام؟.

وعلم ديام انه مازال في مدخل الحديقة بسبب رائحة سياج الآس، وأنـــه يحـــتاج إلى فكرة وجهد لكي يحس بالوصول السريع إلى باب المنزل. سوف يفرك الأكرة النحاسية، ثم يبصر نفسه في مرآة المدخل كنوع من التأكيد على جدارة الأناقة لأجل استحقاق شرف المقابلة. وكيف حالك أنت يا مستر؟. سوف يغرز المستر شيئاً في جيب ديام، فيقول انه يغرز نقوداً ولا يغرز قلماً. يقول: ما هذا يا مستر؟. ولم تكن

Twitter: @ketab_n

تلـــك الأوراق إلا نقـــوداً، تســـاوي حسبما قدرها ديام من خلال السُمك؛ خمسين ديناراً، وعليه أن يقبل ويستعد لإعطاء المقابل.

جاء صوت من المقبرة. الريح وراء الأقفال كهمس من يقضي قبل إتمـــام الوصـــية. أســـراركم مأمونة. مأمونة. أودعناكم. أودعناكم. أودعـــناكم. أودعناكم في خرير الجدول. أودعناكم فلا تحزنوا لأجلنا أيها اللاحقون. خرير أنبوب الحمّام. صوت السيدة من الحمّام. تقول تلك الجملة بعربية ركيكة أحياناً: أوليفي.. هل جئت يا فأري العزيز؟.

فـــلا بد أنه سيجيبها مترعجاً لأنها تخترق بإلحاحها الدائم لحظاته الحـــرجة وتطلـــب منه شيئاً لا علاقة له بفكرته الحالية.. وفق نظام الإعلانـــات. تـــريده أن يشهد وداعها خلف الأقفال. سوف ينقل طلبها إلى ديام: اذهب إليها يا ديام.. اذهب إليها يا ديام.. فيجفل. يؤكـــد له المســـتر مرة ثانية؛ اذهب، أنا أقول اذهب. يفككه العار الشـــديد والخجل الشديد والحياء من أن يرفض أو يرى عريها. فلا بد أنك قد جُننت يا مستر. يشك بين المكتبة والحمّام؛ ما إذا كانت امـــرأة حقيقية لها ما للنساء من كنوز؟!.. وإلا فما معنى أن يكون اسمها أوليفر، وزوجها أوليفر أيضاً؟.

لم يكن للحمّام باب معين من الخشب أو الحديد. كان مدخلاً إلى أحـــد الكوابـــيس، وكانت محشوّة بإهمال في عريها البارد كأقراص دواء المعدة. محتمية تحت تقطير الماء تنتظر الإذن بالوداع تحت الظل.

Twitter: @ketab_n

وزاوية فمها في زاوية الحائط، فرآها بعقله العادي؛ ضالة مُنتَزَعة من جرف العالم، جريدة أخبار؟ قطعة جِبن؟ نعجة مستعدة للجزّ؟ امتحان ذكـــاء؟ حَـــبة فاصولياء؟ حكاية؟.. نعم. نعم إنها حكاية تبيض في جرائد الأخبار بانتظار قطعة الجبن المستعدة للجزّ لأجل الفاصولياء. وما هو إلا امتحان ذكاء!!.

لم تكـــن تـــريد التدليك، ولا قالب الصابون، ولا مقعد العري، ولا تطفئ الضوء يا أوليفر لأنك فأري العزيز.. ولا حول ولا قوة إلا بالله.. فأين الباب يا ديامة؟. إنها لا تريد شيئاً معيناً يا مستر. إنها تريد المزيد من السم يا ديام فناوِلها تلك الزجاجة.. ولنذهب الآن إلى العمل.

Twitter: @ketab_n

— ٨ —

تكررت صيحة الدهشة بمعزل عن الآخرين وقد بقيت ديامة عشر سنوات حبيسة جمالها النادر ندرة صيحة الطائر فوق الرؤوس، لأنها رأت علـــبة مرمرية دفعتها يد رئيس الزَمارين عبر طبقات الأرض، وهـــي تشعر انها صارت بوضع شاقولي بالنسبة إلى ركعة شرب الماء على مجرى فم النعجة ثم فم الصبي. كان الجسد المغاير محاصراً بهزاله، لأنهـــا لم تكـــن تفهم قبل الاكتشاف سطوة الرجل وكرامة الذَكر المهـــدورة بتكرار الأسئلة المتعلقة بما يعتقد انها بعض أسراره. نفوذ أزلي كما يشير سوط الرجل ذي اللحية الممشطة وهو دائب في عمله لـــترويض الوحـــوش.(كان جسدها يمزق مقاييس الثوب). يتراكم الغبار ولا ينسى أنه رجل، فكيف تسأل أباها: أين كنت يا أبي؟.

تحت التراب، يأخذ الملك من الآلهة فيحوّل الأحجار إلى سيوف والغابات إلى رماح.

ستتناول علبة التبغ فتشعر بأنها مازالت على قيد الحياة حتى يفقد الواحد وزنه بخفة الورقة ورفة ريشة الطائر الذي رأى صبياً وصبيّة يشـــربان كمـــا تشرب النعاج (ضد النهم وبرودة المشاعر) بسبب الإفراط في التدخين السري.

Twitter: @ketab_n

تـــترل السيارة باتجاه الوادي. يترل أحدهم ليغسل يديه فتسمع سقســـقة المـــاء. تسمع خربشة عصفور استغل ثقباً في باب البيت الخشبي ليبني عشاً لزوجه، وقد وجدت بيضته قرب ثقب المفتاح ـــ كان أحدهم قد رجم الباب بحجر فخدم العصفور ـــ. تترل السيارة باتجـــاه الوادي، فيعرف ديام انها تترل، ويرى عبر عصابة رأسه أن أخته ديامة قد نامت بعدما نظمت عيدان المقشة. يرى عري السيدة أوليفر فيتذكر أجساد النساء الميتات. زرقة حبال الدم في سيقانهن. حـــين يغادر النَفَس يبدأ الشَعر بالتساقط حالاً، ويكتمل الجمال ثم يتلاشـــى... يقـــترب الجسد من صورة الجلال الكامل في الذهن. الجسد الذي يلتوي بعد الطعنة.

لم تكن تنتمي لهذا الزمن. كانت جزءاً من الماضي المؤجل كتأجيل العجـــين ليختمر. لم تحركها لمسته الحانية وهو يقول: أيا أختي. لأنه لمـــس مفتاح التلفزيون فظهرت كما تظهر الجنيّات في بداية البث: الشَـــعر صوف نعاج. الجلد رغيف الذرة. الفقرات أسطر الجريدة القديمة، تتسلل موزّعة الزغب توزيع وبر الهندباء. شعور كان يأتيه لحظة احتضار الثور.. وخسارة الرجل لأخته.

تفـــوح رائحة البيض الفاسد فيُترِل زجاج نافذة السيارة ليدخل مباشرة في ليل الخرائب الآشورية.

كان الرجل الإنكليزي قد هيأ حبلاً وثلاث نعاج ومصباحاً يدوياً

Twitter: @ketab_n

وحفـــاراً خبيراً هو ديام ابن الحفار الخبير آدم، فلابد أن الجنون قد أصابه كما أصاب هربرت من قبل. هربرت الذي ضاع.. فلا تسأل في هـــذا المســـاء المنـــتفخ تحت قصص كثيرة وراء المياه كأن بذور الـــباقلاء لا تدري فتواصل دفع التربة. لا بد من وجود أحد يمدد ساقيه على الدكة ويدخن. رجل يضرب زوجته. رجل يصلي فتدمع عيناه. العالم واسع فلا تسأل عن الذي يكسر النظام باحثاً عن الآثار في اللـــيل، مسلحاً بحبل ومصباح وثلاث نعاج، متفادياً زاوية المعبد وعمـــود باب النصر ومدخل شرفة استراحة الملك ومطبات أفران تحميص الطين، لكي لا تتحطم السيارة فتكون فرصة مناسبة لهجوم الذئـــاب. يناوـــله قطعة قماش: هاك، أغلق عينيك. فتصعد رائحة البيض الفاسد مرة أخرى. فقط، لأجل صيانة الأسرار. انه لمخلوق عجيـــب يرى عبر الموانع، بينما تدور السيارة حول نفسها لإضاعة الاتجاه. غير انه سيستدل صباحاً بخطوط سير العجلات، فكيف يفكر أوليفر باتخاذ هذا المسلك الملتوي؟ وكيف سيكف عن الشكوى إذا هاجمه الصداع فجأة فلا يجد الأسبيرين، وسيلجأ إلى تعاويز ديام التي تطفـــئ الصداع فوراً. أراد أن يسأل.. آه، عليه أن لا يسأل، لأن جيـــبه منتفخة بخمسين. ماذا تعني النعاج؟ نعم؟ النعجة حيوان ذو أرجل.. وله صوف أيضاً. كلا لا أقصد هذا. ماذا تعني لك النعجة في هـــذه اللحظة؟. النعجة حيوان مفيد جداً لأجل شيّ اللحم على

Twitter: @ketab_n

الجمـــر، ولبنها يعطي المرء قوةً وهدوءاً بعد توتر الصباح، حين لا يعرف ماذا يفعل في أثناء النهار الطويل. وقد زرع أوليفر نفسه على إحـــدى الحافات الصخرية متناسياً أنه يبتعد عن ديام بما لا يقل عن مائتي عام من الحضارة، فلا أحد يحب قصائد وليم بليك، وصرعات المتشـــردين في حـــي سوهو، وأسرار الروح في الكوميديا الإلهية.. و(نلتقي في بعض حالات الشعور بالوحدة). وان الغرب يقف على الحافـــة يراقب الضباب ولا يتذكر نافورة العطر في قصر الحمراء، فيذكره ديام بأنه على خطأ كبير. يجب أن تنحرف قليلاً يا مستر.. وإلا.. سنسقط في الوادي.

فيصـــرخ بـــه: لا ترفع العصابة عن عينيك. ويجيبه بهدوء: لم أرَ صـــدقني، لم أرفعهـــا صدقني. انه يعرف الأرض من خلال اهتزاز الســـيارة وثغـــاء النعاج. يقول: اخبرني كيف تعرف؟. لا فائدة يا مستر.. الأمر بسيط جداً. بما أن السيارة قد اهتزت أربعة اهتزازات عنيفة متتابعة فهذا يعني انها أمام باب القلعة من جهة الشمال حيث يوجد الوادي. وبما أن النعاج كانت صامتة طول الطريق، وأخذت تـــثغو الآن، فهذا يعني انها استدلت بطبيعتها، وبما عودها الرعاة أن تشـــرب من غدير منخفض الوادي.. والأغنام تثغو حين تُساق إلى السكين أو الماء. فهل فهمت الآن يا مستر؟.

لم يرد عليه بكلمة واحدة، فاعتبر ديام صمت مديره موافقة بعدما

Twitter: @ketab_n

سمح له بإزالة عصابة العين. بينما كان أوليفر يفكر، وهو يعتبر نفسه محظوظاً لأنه تعرف على طاقة بشرية. يفكر بالخواء الذي يتوفر له في طلعات الصباح، ويسميه بالنظام الخاص. خواء يتحدد بمجرد ملء المكـــان بصراخ أخرس، أو بتحريض ديام على الابتسام لتغطية أي شيء بشيء آخر، بينما كان ينوي، في الصباح، تسلق الرف المثبّت فـــوق رأسه بحذر، لمس برودة جسده الخشبي (ينام بسرواله الأبيض المُجَـــيّـــب..) وظهـــر أن أيـــة محاولة لتحريكه كفيلة بكسره من الوسط. تسلل وهو يُنزل المِقلاة عن وضعها المقلوب كنمط طبيعي لعادة الحذر من الزواحف السامة، وقد طُرق الباب طرقةً فقال: هذا ديـــام. الـــذي يزوره في الجمعة ليذكره بنهاية الأسبوع، وقد فكر تفكـــيراً نشيطاً يبرر الكسل، وشعر بدائرية الزمن وعدم أهميته هنا، كأنما نسي أسماء الناس في الضاحية ثم تعلمها من جديد.. وهكذا..

رجاه وهو يزيح الطابوقة التي تسند الباب، لضعف ثقته بالقفل، أن يريحه من مشقة إعداد الفطور. لأنك تعرف حال زوجتي يا ديام. لأنـــك تعـــرف الحـــال. لأنـــك تعرف. البيض. البيض عادة مثل الجُمعات. الجُمعات. مثل الجدران الأربعة لأية غرفة (مثل بعض تلك الأيـــام ـــ فكرة تسلطيّة. أربعون ساعة مهدورة: ماذا يفعل المصور عـــندما يضع رأسه في الكيس الأسود. ثلاثة أشهر مهدورة في أمنية تطويـــر ميكانيكية خبّاطة اللَبَن..). صباح الخير يا مستر، هل نمت

Twitter: @ketab_n

جيداً؟.. فمن أين يبدأ لكي يتعرف عليه؟ وهو يدفع الباب بالصحن المغطى بالرغيفين ويضحك. البيض سهل الإعداد، ويضحك، لأنك تعرف الحال. لا يكاد يميز ضحكه الحقيقي من الضحك المفلس، فلو قال له مثلاً: أنظر إلى هذا المسمار، أو : السجادة قديمة. أو: املأ المدفأة.. فانه يضحك إلى درجة تثير غريزة العدوان. صُودف أن رأى مجلة جديدة على خزان الماء الذي يستعمله بمنزلة طاولة لتأمل الحديقة أحياناً. فلا أهمية لأن يقول انه جلبها البارحة، أو انها وصلت بالبريد. لا أهمية لذلك أبداً، فذلك سواء لديه لأنه خطط للنصف الثاني من نهار الخميس، ففاجأه ديام ليذكره بصباح الجمعة. فتح عينيه في الصباح فوجد المجلة ــ انه يتفادى عمود باب النصر ــ وقد سبقه ديام إلى تقليبها برقة وحذر، مع أنه غير مهتم بتمييز العربية عن الإنكليزية، إنما ينظر إلى صفحات الإعلانات ويضحك، دون الأخذ باعتبارات المنظور، فلو كانت صورة الرجل أبعد من صورة المرأة في خط النظر يقول: انه فوقها، فيشعر أوليفر بعدم الجدوى من الاستمرار بإشارات عاطفية تبرر حركة مد الذراع لتحويل صحن البيض من مكانه، بنوع من الحذر الذي يضم خوفاً حقيقياً من وجود الآخرين بقربه.. فمن أين يبدأ بديام؟.

وصلا إلى هنا، مكان يعرفه ديام. فقال: عليك أن تبقى هادئاً. وقرب الظلام صخوراً وأبعد أخرى. بدأ المكان يرتفع وئيداً كأنه يدنو

Twitter: @ketab_n

مـــن الســـماء ويمنح لمسة حافية لطرف الجفن. تبين لكليهما مقدار النقصـــان في الوزن (فيما مضى؛ فلم يتحدث عن سرقة بنك كبير..) حتى كاد الواحد منهم أن يخبر الثاني أنه سيطير بعد قليل فلا يتأكد من فائدة قدميه. يسمع حفيف جسد الآخر في الهواء، صعوداً ودوراناً في الهـــواء؛ هـــل ترى ما أراه؟. تقدم أعمدة المعبد بعضها للتعارف مع خطـــوط بـــرق النعاس.. ثم تختفي متحولة إلى حائط إعلانات لبعض العشـــاق المعاصرين. كتابة تقول:" حسن وميسلون ــ حُب أبدي" يفصـــل بيـــنهما قلب طباشيري. وأخرى تشير إلى سهم محفور بين " صالح ونادية ــ في أول لقاء.." وتاريخ ممسوح بتأثير الغيرة. وحطام زجاج البيرة حول قواعد الأعمدة. ينير الضوء الزجاج، فينير الزجاج بعـــض ذكريات العشاق والسكارى والفارّين وثوّار التحرر الوطني، فـــيما مضى، ومتاريس حرب الأتراك ضد الإنكليز، وحرب الإنكليز ضـــد الأتراك، وبقايا عيدان ثقاب لرجل عصبي، وأثافي الراعي الذي صـــنع الحلوى من السكر والحليب، و..... احترقت أعشاب نهاية الربيع (فلم يبدأ الربيع حتى الآن)، ونَتَفَت البرقوقة نفسها حزناً على نتف البرقوقة الأخرى (وسال الجمر في المنحدرات بدل الماء).. في هذا المكـــان، ركّز آشور رمحه وقال:" يا شعبي العزيز". وقد تحول فمه إلى الجهـــة اليســـرى من صدره. فلم يمضِ زمن طويل، ولا مسافة كافية ليلتقط أحدهما أنفاسه ويعلن: (يعتقد أنه رأى شخصاً قائماً هناك جوار

Twitter: @ketab_n

نافورة الطفل الجبسي..) و(أبصر رجلاً يؤرجح ذراعيه بصورة نادرة في الحـــزن، فأعطته الأشعة الأخيرة دفقة من الحرية..). يعلن انهما ما يـــزالان يـــدوران حـــول السيارة، وأن البقعة المقصودة لم تزل تحت أقدامهما. بقعة الكنوز والخوف المحتمل من الخسارة.

قال له: احفر هذا المكان.. احفر بحجم دائرة الضوء. بعدما أزاح صـــخرة كانـــت بمنزلـــة علامة وضعها في النهار. وقال له: إحذَر السقوط فالمعبد تحت قدميك يا ديام.

جمـــع الحفار ظله. رفع المعول وبنان الخبرة وأخذ ينطح الأرض بوخزات رقيقة حادة مستشعراً جواب صوت القدر المقلوب. صوت يـــدل على وجود فراغ ما تحت القشرة. ردمٌ كصوت جلد التيس المشـــدود إلى جـــرّة مجوّفة. ينبه الإيقاع المنتظم إلى غريزة الرقص وفرحة اختراق العروس بعد توزيع السجائر.

كانـــت الغـــيوم مُخاطَة ببعضها بجهود الأبيض المتوسط، ورائحة الفضـــاء تـــنذر بعاصـــفة محتملة ستحصد الحنطة قبل حقن اللبن في الســـنابل، لذلـــك ســـيعطيه سيجارة لتبرير الفشل المحتمل كما يبدأ الإنكليز حالة التعارف بوصف الطقس، فيا له من رجل دقيق!.. كيف حدد هذه البقعة بالضبط، وفي هذه الظلمة؟. هل ترى ما أراه؟.

اصـــطدم المعـــول بصخرة، كانت مُـــحزّزَة بعد نفخ التراب، بنقوش مكررة لسنبلة الشعير، فتساعدا على سحبها ليشاهدا هلال

Twitter: @ketab_n

البـــئر الأســـود. كانـــت الصخرة رقيقة وقوية كغطاء المعجن، في الأصـــل: بلعـــوم المعـــبد، مدخل إلى المكتبة. اكتمل القمر بإزاحة الصخرة نحو مرحلة المحاق. يتبادلان دوار العمق ويُبعد أحدهما الآخر عـــن الفوهـــة كي لا يسقط أحدهما فوق الآخر.. ثم ينبههما عطر المعدونـــس ونافورة أرواح المحاربين، وتتباعد أصابعهما بشكل يدل على التوبة لآخر مرة أكثر مما يدل على الخوف.

تنعكس صورة للسماء ونجومها البعيدة بلون ظَهر المِقلاة المثقبة، بيد أن السماء مفروشة بالغيوم. ويظهر برج الأسد بجلاء في أقصى نقطة يصلها الضوء. لم تكن نجوماً ولا برج أسد، بل أعين حشرات خماسية الأرجل، تنمو في الظلام على عسل الطين المحمص وطبعات أصابع عمال التحميص.

لم يمـــض وقـــت طويل ليستعيد أحدهما توازنه ويعلن أن النعاج جاهـــزة، وأن واحـــدة مشدودة بالحبل كما ترى، فانزِلها مهلاً إلى العمق.....

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

— ٩ —

تجـــاوز الوقت منتصف الليل، ومازالت ديامة تقلب عينيها في دبق النعاس وصوره التي تنفش أثاث العالم وتزيّن القبح. في معيّة من يؤمن أنه السيد دائماً، تنتظر مروره وهو يدور في حلقة زحل المكعب حيث ينثر وبر الوحوش بليونة سوطه. تنتظر بين وسادتين، يدها على وردة التطريز، تلمس حروف (صَحَ النوم).. من يشق كثافة الغبرة ويحييها، ولكـــن يده لن تكون فارغة، بل مشغولة على الدوام بتقسيم الهواء بليونة سوطه وهو مشغول بجريانه لأجل الإفلات من حدود الزمن.

لابـــد أنها تمطر على باب العربة لغسل الغبار ومحو الأثر. انه لا يحاول الإفلات من المطر خشية الغوص في البِركة، ولكنه يفلت من الـــزمن لئلا تصطدم عربته بعقارب الوقت الحاضر.. وان الوحوش تدفعه إلى بناء رهان بينه وبين نفسه.. لابد أن السماء تمطر على باب البيت فوق قطعة الكارتون، فمن يطرق الباب إذن؟.

اغرورقـــت عيـــناها وهي تنظر إلى هيبة الرجل المنفوش، يسوط الوحـــوش التي تجري بلا عائق، بجمال وقسوة لا مثيل لهما.. قسوة وجمـــال موعوديـــن. لحظـــة انتفاض الحبل الشوكي، انتفاض وتر الـــربابة:" موّال موّالي.. حال العَدم حالي".. وتركت وزنها لرحابة

Twitter: @ketab_n

السرير.. تخلصت من الوزن.. من الإحساس المخجل بحدود الجسد، مـــن فكرة الجسد بالذات، وهي تهبط وترتفع، مستعيرة من القطط الإحساس الفائق بلذة لعق الوبر.

هـــتـــفَـــت: انظر.. انظر إلى الوحوش!!.. ولكن لمن؟ لابد أنها كانـــت تكافح صرعة النوم، وتنقل سمعها أحياناً قفزة واحدة خارج الباب. انها تمطر على باب البيت فأين ذهب العصفور؟. صح النوم يا عزيزتي ديامة. صح النوم يا عزيزي آشور. كل شيء على ما يرام باستثناء الخربشة، هذا الحك المزعج.. يا للمسكين، لابد أنه يسلي نفســـه بـــالحك، فعندما تنتعش العصافير تحك مناقيرها بالخشب.. الشجرة تغسل أوراقها لإزالة قشور الذرق.. وتصعد رائحة فضلات العصـــافير. في أي فصل نحن. لا شيء محدد في أورا لا سيما الزمن. ويتحول الحك إلى تهديد. فمن يطرق الباب يا ربي؟..

ثمة عاصفة شديدة في الخارج.. الريح.. الريح.. رياح تدفع أواني الطبخ المؤجل غسلها إلى الغد.

يـــتذكر أولـــيفر بأنه كان شديد القسوة ضد ديام وضد نفسه. ليلة شتائية صريحة. يسقط المطر على قطعة كارتونية خارج النافذة، لذا فهذا الصوت يغري بفعل أشياء كثيرة قريبة من شهية العري أو نطح الحائط.

كـــيف يركّز نفسه؟. يسمع المطرَ معَلّماً بانتفاض أوراق الشجر، وهديـــر ســـيارة غائصة في وحل الطريق، هدير السُحب (المطر على

Twitter: @ketab_n

ضفاف التايمز. علب البيرة. خقن الأفيون. تدق الساعة، والمرأة تعصر أنفها لسحب المخاط، محاولة استدرار عطفه) وكل ما يحيط به أبكم، بيد أن الستارة اندفعت، فالشباك شبه مفتوح. المرأة تنشج لأنه نزل عن السرير وبدأ يكتب في الظلمة: أعتقد أنني سأطير إلى لندن بعد تصفية الأمور. نقطة. ليس ثمة مزيد من الكلام. كانت السيجارة منقوشة كما يتذكر في النهار، باردة، وميض السيجارة يفضح هندسة النقوش، مع ذلك مازال الانتباه مشدوداً إلى محاولات السيارة، واصطفاق الأبواب الحُرة. انه يؤجل كل شيء، فقد أمسى على استعداد تام للاقتناع بفشل التجربة. إنها تمطر فوق قطعة الكارتون.

حين اغمض عينيه، انفتحت في ذهنه رؤيا الأراضي المفتوحة، الخرائب، الحذر، صورة لحارس الكنوز بناب طويلة واحدة. دانتي. مرت النعاج مُقَطّعة فوق مسند السرير. انفتح في الجدار فم البئر ثم انغلق.. وانفتح من جديد. بدأ يجمع الأعداد لكي يمحو صورة بصورة، ينسى، يحاول أن ينسى. يقترب من خطر الجسد العاري تحت الغطاء وقد بلل ما حوله بمخلفات وسخ الحمّام. (كانت روحاً هائمة في أحد المراقص بعد كأس الكوكتيل..) فتحولت إلى حصاة باردة مرمية في منتصف الشرق ذي المذاق الفلفلي، الشرق. الشرق. الشرق مرة أخرى. التوابل والحرير. الدراويش. فن اليوغا. الشرق مرة بعد مرة. ضاع هربرت. حرارة الطقس. الجوع. حرارة الجسد. البترول. أقدم

Twitter: @ketab_n

الحضـــارات. الأوبـــئة (تركته وحيداً في فراغ وبرد الطقس، يدرك انه ســـيلتقي بأشخاص منكسرين على الدوام. وانه سيدشن رحلة جديدة دامية، يتهم ويحاسب أمام الجدار وسط الهواء المخلخل. سينبت له قرن في جانـــب رأسه، يحس بهذا، كأنه سيتلف بعد قليل وتنبعث منه روائح الأشـــياء العتـــيقة.. رائحة تذكره بمعارك النفس في أيام المصارعة مع الموقف وجدواه.. يا له من اختناق..!! يا إيفيلين. لقد وضعته هنا، ليرى العالم منذ البداية: الدماء وتطور شكل السيف وشكل الأرض من صورة قرصٍ طافٍ على المياه حتى اكتشاف فكرة الدوران، ومن العراء والمطر الدائـــم ومشـــاعية الـــرزق والتكاثر والنوم على الشواطئ، ومهازل الحملات الجماعية لاصطياد الوحوش، كل وحش بدولار. عصر الحجر والنار والبرونز والطيور الخرافية التي عبرت بقوة أجنحتها محيط الأرض ثم احترقت بغاز الهيدروجين..) بعض من تلك الأغاني التي تصف تفتق الجـــروح. يسمع خربشة البرق في مكثفات أجهزة الراديو البعيدة. ثمة أنـــاس يحبون سماع الأنباء وسط حظائر البقر. ويقولون ان الرجل يأكل الحشـــيش إذا أكـــل الكـــرفس مع الوجبة الرئيسية. يلتفون بلبدات الصـــوف. يتسلون بالحزّورات اليومية المُعادة. وعروسه ميتة في حوض الشمبانيا. فمن الذي صنع هذه الحضارة؟. لماذا قال ديام انه لم يجد شيئاً يا مستر؟ ولماذا ذهب دون أن يركب؟ ذهب في المطر..

كان ديام يستقبل القطرات الباردة على حافة الوادي، ويتساءل:

Twitter: @ketab_n

أيــن تذهب القُبرات وطيور الخطّاف والبيوض الصغيرة المُنمّشة؟. تدفــع ضريبة كسر الجناح لقاء استعراض ذَكري أو أنثوي وسط النفــيخ. الظلم الطبيعي في لعبة منخفضات الضغط من وإلى البحار المغلقــة. قال له: إركب لنصل معاً، في السيارة. فقال: لماذا اركب وقد بدأ المطر؟. إنني أحب المشي في المطر.

اســتقبل القطــرات الواسعة كقُبَل. لقد وضع نفسه في مركز الــتجربة فتلوّث، وعليه أن يغتسل. يسمح لسكاكين الفخار بجرح قدمــيه، يســمح بلا حدود. ويبتهج لأن الأرض أرخت جسدها بســكون وشفاء. ذاب الهواء في الماء.(وعندما ضرب البرق مقبض بــوق إسرافيل، حيث حافة الكون، شعر بسلام طائر الخطّاف على ســلك الكهرباء، بعدما أجهدته بيضته فرماها للعاصفة) والعاصفة تهــدأ فيــبقى المطر. يقظان، مكتمل البديهة. يلكزه حدس عصب الشم؛ فضيلة من فضائل البرّيات. حدس عصب السمع؛ قدرة أذنيّ الفَــرس. حدس عصب البصر؛ بصر المرأة التي رأت أشجاراً تمشي فــلم يصدقها أحد. تختلط الحدوس في حَبة تحت المخ يعرفها بفضل حاســة لمس لا مرئية، بما انه يستطيع تحريك أذنيه، وهو ابن الذي يفوز دائماً في مسابقات قَطع التنفس تحت الماء، كما انه يستطيع أن يأمــر قلــبه بالتوقف دَقّة أو دقّتين. يقرأ نوايا الأشخاص ويعلمهم بأسمــاء عشيقاتهم ــ بعضهم كان محكوماً بعادة إدخال الإصبع في

Twitter: @ketab_n

الأنف ــ فيفهم أنهم بصدد احتطاب بعض الذنوب..

لم يمــض وقــت طويل ليستعيد أحدهم توازنه ويعلن أن النعاج جاهزة، وأن واحدة مشدودة بالحمل كما ترى، فانزلها إلى العمق.

بمــا أن الحــبل طويل فإن البئر عميق. النعجة ثقيلة، ولكن ديام قــوي. أمــره أن يشدها من المنتصف حفاظاً على التوازن لكي لا تفلــت. أعطها الحبل. أعطِها الحبل. بعد. بعد. بعد. كانت ترفس الهواء وهي مُعَــلّقَة، فما ذنب الحيوان يا مستر؟.

حــبس أنفاسه ليحوّل القوة إلى يديه ويعطيها الحبل، بينما كان وجه أوليفر محطّمَاً في طرف دائرة الضوء، متسائلاً عن جدوى هذه العملية وعن نتائجها، وهو يكاد أن يدور بسبب القلق. فهل تعتقد انهــا خائفة؟. ربما تشعر بالاختناق. هل تظن انها تفكر بالعشب في هــذه الــلحظة؟. عينها التي من هنا، دائرية مضاءة كزرار معطف المطــر.. مضــاءة بفسفور حلاوة الروح.. ومازالت ترفس. أعطِها بعد. لقد ازداد رفسها، وبدت اكثر ثقلاً كلما دفع ذراعاً من الحبل نحــو البــئر. ما هذه اللعبة بالله عليك؟ تمسك بالحبل يا أوليفي ــ تمسك أنت يا ديام. ما الذي يسحبه؟. تسحبه (رسالة بعثها هربرت: من هذه الأماكن التي وقف فيها آشور، إلى ضباب لندن. نرسل لكم طياً خارطة مفصلة للمكان، والبئر محاط بدائرة حمراء. اعتقد، على ضوء الدراسات الآثارية، انه مدخل مهم إلى بعض الأسرار. جربت

Twitter: @ketab_n

إنـــزال الحيوانات أولاً قبل أن أقامر بروحي، وسأحدثك بالتفصيل عما حدث. ملاحظة:.....).

ملاحظـــة أخـــرى: قبل أن أقامر بروحي. قبل أن... لا أدري، ربما سحبته الشياطين؟. لعلها ماتت، فقد سكتت حين انتهى الحبل. ثمة وقت طويـــل بين لحظة إنزال النعجة ولحظة إخراجها. وقت عذاب الانتظار (وقـــد جربه هربرت). لابد أنه وقف على الحافة بفضل ما يتمتع به من قوة الجسد والذهن، وأخطأ في التقدير. غلطة الذكي قاتلة.

والآن: هـــذه أولى القطرات.. وديام يحتضن الحبل كنائم. يعرف بحســـه الفائق أن النعجة قد أفلتت ولا يمكن إخراجها من هذا المكان المهجـــور، غير أنه ينتظر الأوامر. ولا يدري أوليفر شيئاً عن الوقت الذي يجب أن تمكث فيه النعجة قبل سحبها من العمق. قال: يجب أن يكـــون هـــناك وقت كافٍ للتأكد. يمطه الفضول. وقال له: اسحب الحـــبل عـــلى مهـــل. خزن احتياطاً من القوة لأجل السحبة الأولى، فانتفضت يده في الهواء. التف الحبل، وبعد ثلاث، ثم أربع سَحبات، ســـقط أولـــيفر في الإغمـــاء، أما ديام فلم يلاحظ مثل هذا. قال: يا يسوع!! وسقط في الإغماء. وقال الآخر: يا محمد!! وظل حائراً يوزع نظرته المندهشة بين المدير الساقط وبين بقايا الأمعاء في نهاية الحبل.

كـــان الضـــوء قد انفلت ليكشف عن نذير الطقس، وصخرة ســـاخذ شكل البوم المزغب بالقطر وغطاء الطحالب. بدأت أولى

Twitter: @ketab_n

القطـــرات عـــندما فتح الوادي فمه لينهش عمود الضوء. واخترق الفضـــاء، فوقهما، صوت طائر الطَيطَوى.. سيحتاج كل منهما إلى نوبات متوالية من الإغماء لكي ينسى ثريات الأمعاء اللامعة وسط المحـــاق، والحبل المغمس بالدم. حين سقط المصباح منيراً وجهاً كئيباً لحشـــرة الأنقليس، فلا يتذكر أوليفر انها من أسماك بحر المانش لحظة الغرق. وبصق ديام في يديه لإزالة الارتباك بحجة إزالة الاحمرار.

كشـــف الضـــوء المتدحرج عن قوة تلاصق الطابوق بعجينة القِـــير، ليحمل خفّ ذلك الرجل الذي حرّك جذور مملكة فارس، وهو يملأ رئتيه بـــرطوبة صباحات النهر العظيم قائلاً: يا شعبي العزيز. يركّز سن الرمح عـــلى طـــرف عـــباءة دانتي، وبينهما أزمنة وجدران عالية وأوراق من الســـيلوفان، وفاوست، وبضع من أعقاب سجائر روثمان." وبدأ مؤنسي يقول لي وهو متجه نحوي بكليّته: لم لا تزال يساورك الشك؟ ألا تثق بأنني معك وأنني أقوم بإرشادك؟"[1]. وصارت قفزة الجندب قفزة سبع يستقبل سهماً (في التصاوير وأصنام الزينة، تتدلى السباع على جانبي العربة).

لم تكـــن إلا ومضة صغيرة من الخوف كنفضة الكهرباء، حرّكت بـــؤس المستشرق، ففتح عينيه بعد انتظام خبرة اللحظة، ليجد ديام يهز رأسه بأسف، وهو يخلّص بقايا جثة النعجة من عقدة الحبل، وقد حصر المصباح بين ركبتيه.. وكان وجهه مهدماً.

---

(١) من (الكوميديا الإلهية/المطهر) لـــدانتي.

Twitter: @ketab_n

— ١٠ —

أنظـــر إلى المرآة: مَـــن أنت؟. أما زلت تفكر بالمزمار؟ هل سبق لك أن حاربت في بلاد عيلام؟. الشتاء يحيط بالمكان يوم الخميس أو الأحد، فلا بد أنني كنت غاطاً في أحد الكوابيس، بعدما فشلت في مقاومـــة النوم، كوابيس مهارة الخيال في وقت غيابي، كذلك مرت بقرة تتبعها صبيّة فوق حمار، فقلت: سارة. ولم تكن سارة طبعاً. ومر فلاح يتبعه ولَد يقيس خطواته، فكيف حدث أن نمت فلا أعرف ما إذا كانـــت ثمة بقرة تتبعها صبية فوق حمار، ولكن لابد أنني كنت غائـــباً حين سمعت خطواتها في الحلم فاستيقظت فكانت خطواتها في الغناء. إذن فقد استعملَت سلم الحلم الحجري، ربما فاتني السلم في الحـــلم.. لحظة لا يمكن إحصاؤها، حتى انني لم أعد أميز، لو لا علبة السجائر في الوقت المناسب حين نفدت سجائري فحلمت انني بحاجة إلى دخـــان، لو لم أستيقظ وأجد العلبة وأشم آثار العطر في ردائي، قلت: أشم رائحة النيكوتين، نيكوتين المرأة المعطرة، بعدما انقضت فترة طويلة كنت باراً تجاهها، فكيف أصدق أنها جاءت ثم ذهبت. لا أذكـــر أنني رأيتها تماماً، بينما أستطيع أن أؤكد بأنها قبّلتني وقلت: شـــكراً على العلبة. وكان النوم بمثزلة هرب يختصر لي الوقت حتى

Twitter: @ketab_n

موعـــد رؤيتها مرة أخرى. منذ يوم الخميس أو السبت صرت حاد العاطفـــة، أتذكر تلك المرأة كأنني التقيتها قبل سنوات. أين؟ متى؟. هـــنا جلسَـــت. هنا قالت: أحبك، وقبلتني ثم دست الرشوة تحت لحـــيتي. متى حدث ذلك؟ لم اعد أذكر. انها مشكلة الوقت بنسيان الساعة. كونتن مثلاً. لم اعش في أورا، بل في هواء السقطة..

حين استيقظتُ، توجهت فوراً إلى إبريق الشاي ناسياً بأنني ديام، وقلت: لقد فاتتني مشاهد كثيرة، وقلت: لو أمتع نفسي قليلاً بمشهد الفجـــر، وقـــت انسحاب الحيوانات إلى الدغل. طقس نحاسي، من خلال فتحة الطوب، الشمس تنحدر إلى الغروب، فجر الغروب.. غـــروب الفجـــر. انسحب المشهد ببطء نحو الشمال حين أظهرت الثعالـــب رؤوسها متهيئة للإغارة. فكرتُ بكلمة (سعادة).. ببرود هـــذه الكـــلمة وخوائهـــا، عندما قارنت كل شيء هنا بلحظات الارتعـــاش لمجـــرد سماع صوت المزمار، ثم بيانو شوبان، فيما بعد. لحظات لا يمكن الإحاطة بها، فكيف أصبح سعيداً دفعة واحدة، دون مقدمات وبلا متاعب مسبقة؟ عطر النيكوتين؟ أذن الثعلب؟ القُبلة؟. استيقظ بينما تغرب الشمس في الحظيرة.. فمتى أتذكر أيامي دون أن تكـــون ثمة نكبات أو زلازل وجرح يُنكأ في كل خطوة حرونة نحو الغروب. مرة أخرى: السر يكمن في هذا المشهد الشمالي. بالضبط، في اصـــطياد هذه الفكرة، لكي نكون أفضل دائماً. أنا.ألاحظ، لا

Twitter: @ketab_n

زلـــت أترقـــب حلول المساء، والبصر يتزلق فوق الأشياء دون أن يلامسها، فيدخل ضوء الغروب ويلوّن كل شيء. أقول: لقد صرت سيئاً إلى حد ما لأنني أريد أن اعرف ما الذي تفعله هذه المرأة بعيداً عني؟ مع من تتحدث؟.

مـــثلاً: هناك. ليس لهذه الإشارة من تحديد طالما أن جميع الأشياء تـــتلون بلـــون النحاس لذا يجب أن أكون أكثر سعة، لحظة العودة للإمساك بتلك الفكرة التي تقفز لتصبح جزءاً من المشهد اللانهائي، مشابهة لكل فكرة عن المرأة التي جاءت ثم ذهبت...

تسيطر عليّ تلك الفكرة، منذ أن فارقتني اللذيذة (في صباح أحد الأيام، كنت طفلاً، وقد فتحتُ عينيّ فوجدت كعكة محمصة أمامي. وقالوا: انه العيد يا صغيري، فالبس جلبابك الجديد.. ولكنني انتظر مـــرور الصبيات بروائحهن الحادة، الملابس الفاقعة بألوان الحصاد والســـماء الربيعـــية، ألوان حلم السفر، ألوان العيد نفسه، وكنت أحلم بها منذ عهد بعيد، أيام كنت تائهاً في ظلمات رحم أمي.

تـــأتي مـــن بين الصبيات فتضمني إلى صدرها ضم الملقط، فألتذ بـــلحمها الدافـــئ، بنهديها الصغيرين اللذين يدفعان حافة الثوب، يمزقان الثوب كل يوم..).

لم تكن إلا ذكرى في رأسي المليء بحطام البشر. ارفع وجهي: لحظة تعـــادل الانتصار، كأنني أصبحت خالداً دفعة واحدة. عيناها اللتان

Twitter: @ketab_n

تحجبان عني بقعة واسعة من السماء. أكون قد أكملت معنى النضج، حـــرارة اللقـــاء الآدمي بين ذَكر وأنثى وقد ذهب الجميع إلى المقبرة حيـــث يقام العيد هناك. لا فائدة، تحاصرني الفكرة مرة أخرى. كيف أســـتطيع الإمســـاك بتلك اللحظة الهاربة؟ كيف أصف؟. ربما تعود المشـــكلة، مـــرة أخرى، إلى حساسيتي تجاه الوقت.. فكم من الوقت مضى عليّ هنا قبل أن أتعرف بها؟ وكم من الوقت أمضيت معها؟ ان المســـألة خارج الوقت. أحاول أن أفهم سر هذا التعلق بها. اننا ـــ أنا وهـــي ـــ ديام وسارة ـــ لا نريد إذلال بعضنا بعض. لا نريد جرح بعضنا بعض. لا نريد تخليص بعضنا من بعض. لا نريد غير المزيد من العاطفـــة. اننا نؤجل دائماً لحظة القتل، نُطهّر بعضنا باللمس. فما هي الآثار التي سوف نتركها للذاكرة؟. اننا نصر على أن نكون في حضور دائـــم، بلا عذاب معروف، ولا عُقد ممكنة، ولا أمل مُعَذِب، نتناول بعضنا ببساطة كما نتناول هواء التنفس، دون أن يحاول أحدنا سرقة الآخـــر، دون أن نطمح إلى إذلال بعضنا. نترك الوقت يمضي وأيدينا متشـــابكة كجذور العشب المعطر، وعيوننا الأربع تصير عيناً واحدة مفتوحة نحو الحلم. نتخلص، لحظة اللقاء، من مشقة الجسد، وأمراض البشر بما فيها الغيرة، بما فيها طعنة الإذلال التي اعتاد أحد العشاق أن يجهـــزها للآخـــر بعد عذاب القلق. أشعر بأننا لم نعد من سكان هذه الأرض المعـــتقة بالخطيـــئة. إننا من كوكب آخر لا تعني لديه كلمة

Twitter: @ketab_n

(موت) أكثر من نُكتة فارغة تثير الضحك.

نتبادل العناق فيُسلم كل منا جسده إلى الآخر كقربان لا كأمانة. نتبادل الأجساد ونركع معاً ركعة امتصاص الشفاه، ما تفعله النحلة حيال الزهرة. عسل الشفاه الذي يبعث الرعشة في النخاع. تركت كل ما في يدي وهويت بثقلي على حافة الباب. لعلها تأتي قبل هبوط المساء، مجتازة وديااناً وصخوراً وعيون القرية. تنبحها الكلاب.

رأيتها تنزل الوادي بثقة من يتره، ملقية على كتفها رداءً مستأرجحاً. رأيتها فوق منحدر الحصى. مُخصّرة بالحزام، تحمي كنوزها برداء ليّن. جسدها العجيب يجلب الرعدة عن بعد كمشهد طلوع الشمس بعد الكسوف.

ظهرت بطريقة مُفرحة على حافة الطريق تتثنى بليونة أغصان جهنمية. تجلب الرعدة، الشعور بتوقع الانفجار، الشعور الذي يأتي عادة بعد النجاة.. كأنها لا تدري وستذهب متنكرة بعد هبوط المساء. تجازف. أراها، امرأتي التي لامستُها في كل قطعة بمساحة الدرهم. تستثير التأمل المفجع، وتدعو إلى الانحناء لمن أبدعها بنهدين صغيرين وحوض مثمر يُذكرني بتدفق الماء.

تأتي مرتين في الأسبوع الواحد، وبين هاتين المرتين لا أستطيع الجزم بأنني موجود عاقل. تمر الساعات والأيام كرفة الذبح، فارغة، قاحلة، خالية من معنى الصفاء والهناءة، خالية من كل شرط حياتي.

Twitter: @ketab_n

ألتجـــئ أحـــياناً إلى الغـــناء فأجد ضيقاً في حنجرتي، وأبكي أحياناً وأقول: سأبكي حتماً عندما ارفعها عن الأرض.

وأرفعهـــا عـــن الأرض فتؤرجح قدميها، وأقول: مَن تكون هذه المرأة التي جذبتني من فترة الاستراحة، وعلّقَـــتني كحادثة؟.

لم يحدث لي ما حدث لو لم تتحداني ببراءتها.. آه لو لم تكن طفلة لما حدث ذلك. إنني أخجل من تسأول: هل هي آخر التجارب؟ فقد جعلـــتني أكـــتفي، وجعلتني اشعر بأنني سأموت بعد قليل. المعذرة فالظـــرف لا يسمح. أوه.. إنها صامتة ـــ أتمنى صدّقيني ـــ المهم ما تقولين ـــ أفهم هذا الصمت ـــ انتظري يوماً آخر، يومان، ثلاثة.. لا أكـــثر ـــ سوف لن تجديني حياً على الأقل ـــ طبعاً ـــ لا حقيقة بدونـــك، في هذه اللحظة على الأقل ـــ كل شيء بلا معنى عندما تذهـــبين ـــ انتظري ـــ انتظري أكثر.. أرجوكِ انتظري ـــ سأفرغ عندما تذهبين.. ها؟. أتمنى أكثر من أن أحبكِ، والكلمات تعبانة فلا تـــنكري.. تقولين لا أعرف. يدي على يدكِ ـــ الكلمات أصغر مما أشعر. ولكن الأشياء هي كلمات ـــ أنا، أنتِ كلمتان تجمعنا كلمة واحـــدة لأنـــكِ مضـــمونة وأنـــا مضمون.. فلماذا تجرحين أحياناً وتذهبين؟ ـــ لماذا نفترق إذا كنا نريد أن نبقى؟ أنتِ من نسل دلهوث حقـــاً ـــ لأنـــكِ متجددة على الدوام تتمطين كالأطفال صباحاً ـــ مـــاذا؟ لا أسمع رجاء من أي شعب أتيتِ؟ أعجب وأندهش في كل

Twitter: @ketab_n

مـــرة تســـقط فيها عيناي عليكِ. أنتِ متجددة ـــ إنها ترتاح لأنني أريدهـــا أن ترتاح، لا تفسير لهذه الحالة، أسمع القلب يعصر نفسه، أسمعه يقفز إلى الجانب الأيمن، يهرب إليها والكلام لا يكفي، لأنكِ فوق ما يقال، بيضاء كالطين، كالسماء في ظهيرة آب القائظ، بيضاء كضوء العين لحظة الشوق.

تكـــون ذهبية أحياناً، ليس بلون الذهب، تكون برتقالية أحياناً، لـــيس بلـــون الخجـــل ولا بلون البرتقال. تكون لوناً لا أعرفه : بَـــنَـــزَرَقي..؟ أحمر حشيشي.. بلون التسلل إلى الضفة المقابلة ليلاً ـــ بلـــون حلم الجنة ـــ مشتهاة كالصحراء للبرق، البرق. البرق. البرق. برق في الداخل ـــ لا ادري.. أتمنى أن أموت في لحظة القُبلة.

ديـــام يعـــتقد أن لا أحد سيُقدر انقطاعه هذا، فلطالما أغلق باب الدخول ليفتح النافذة على العالم، حيث الثمار الذهبية مخبوءة تحت الأوراق. يقول: مثلاً: مَن يعرف عالم الحشرات السري؟.

عوالم أخرى تحيى فيها الأشياء التي طالما نظنها جماداً. يرجو أن تأتي سارة لتمثل جميع النساء، كي يفتح لها الباب المؤدي إلى النبض، باب القلـــب. المقبض؛ مقبض المقلاة، حيث يمكن غلي بعض العواطف أو شـــرائح اللحم لأجل جلسة سرية في مكان سري، وكأس من شراب الحنين إلى شيء سري، ورقص داخلي. عندما تكون العين إلى الداخل تعكس صورة العالم دائماً. وقفة أمام مرآة تصفيف الشَعر. دكة. بعض

Twitter: @ketab_n

الأدوات التي تنتهي جميعها بقلم الكُحل حيثما ابتدأ العد.

لـــيس ثمـــة ما يجعل ديام:" ليس ثمة ما يجعلني.. مشاعر لا يمكن وصفها إلا بعد فوات اللحظة بسبب الاستغراق حين صدمني حائط مهدم في منعطف طريق، توقفت: اخبرني ما الذي تراه؟. الحقيقة انني تذكـــرت ان هذا هو الموسم السنوي لسقوط شَعري الذي يجب أن يكون قصيراً إلى حد ما لكي لا تتعب البصيلات في عملية التغذية، والتغذية تأتي من رأسي. تذكرت انه ليس أول حلاّق أتوقف أمامه. تذكـــرت سارة، فقد توقفت أيضاً أمام دكان البقال بعدما مررت بعـــدة بقـــالين، وديامة أوصتني بجلب الخضار. الآن دقت سارة في الغرفة معلنة السابعة والنصف مساءً فأجفلتني حتى حككت رأسي: شَعري طويل. آه لقد نسيت أن أذهب إلى الحلاق، لأن ديامة قالت: أين الخضار؟ وقلت ان سارة تدق في الموعد المقرر حين نجلس على دكة العرش الآشوري. صدمني حائط مهدم، شيء يُذكر بالرحيل أو العـــدوان.. كانـــت هناك ضحكة ومشجب ملابس على الحائط، وبعض آثار تدل على تزحلق مسند كرسي، ربما يذكر بالنسيان..".

يقـــول ديام: قال لي أوليفر:" انك أفضل شخص عرفته يا ديام، لأنـــك مـــثقف بثقافة غربية.." وقال:" اقرأ وليم بليك: حين وُلد الطفـــل صبياً.. إلخ". فقلت له: قرأت وكِدتُ أن أتزوج أُختي، ان الثقافة الغربية تجعلني فاسداً.

Twitter: @ketab_n

ذلك الـ (بليك) أحد أشباه أوليفر، أحدهم، والآخر (شوبان)، منذ لحظة وضع القبعة، هزني بضربات البيانو. حين وضعت قبعة أوليفر على رأسي اكتشفت أن أوليفر كافر لأنه لم يكن يستطيع رؤية السماء بسبب حافات القبعة. لم تعد موجودة. سارة: اسم من القاموس، لم يعد جسدها موجوداً، ظلها، طبعة فمها المصبوغ على وجه شكسبير. وأنا؟.. آه.. وجهي مُرَقّع.

لقبلتها اكثر من مجرد خطوط فتنة الأنثى في الشفتين حين تلمهما قبل، صوت القُبلة على الكتاب، وعلى الحصاة التي لمستها.. أنا؟. آه.. هذه الغيوم في وجهي. أبي يعرف أنني خلف سياج الحظيرة أو خلف زجاج النافذة أجمع أصابعي العسرة محاولاً التقاط آخر نظرة منها، نظرة مُطابِقة لكلمة: عَدم.. وقفزت، قفزت، قفزت في الهواء.. فهز رأسه بأسف ثم لبس الباب، باب عادته اليومية: النوم، النوم.

ينتاب ديام ذلك الشعور الفريد بأن نجمة تهوي في أعماقه، فجر يشبه الذبول، منظر الحديقة، جفاف خلف الزجاج، اكتئاب يعقبه تسلق، رواح ومجيء، قارب ضائع. هناك طاقة كافية لأجل التصرف لحظة الشدة، فلا بد أن أكون ــ أحياناً ــ منسياً من نفسي، فأتذكر أني سحبت غابة لمجرد اني اشتهرت باجتراع الغصة، والشهرة لا تتجاوز حدود معرفتي أنا.

يذكر ديام أن المستر أوليفر كان يؤكد له، وهو يرفع نظاراته

Twitter: @ketab_n

بســـابته، انهما يلتقيان في شيء سري لم يظهر في سلوك أي منهما، ولكنه شيء سري بالتأكيد: نلتقي في بعض حالات الشعور بالوحدة. الوحـــدة. الوحـــدة. مَن أنت؟. هل سبق لك أن حاربت في بلاد عيلام؟ وجهك وحيد ومعزول، وهكذا فإن مرشدك قد رآك تشرب الشاي بسرعة فقال: لابد أن فيك جليداً تنوي إذابته. وجهك يبشر بفشـــل الامتحان، عيناك المظللتان تحت بعض التجاعيد المبكرة في الجـــبهة، فم مائل قليلاً. تنحني في المرآة. أنت وحيد، وحيد. وحيد ومعـــزول. سكون المكان في موت المشهد الشمالي، منذ متى لم تنظر هكذا إلى نفسك؟. منذ متى، تفتح الباب، باب القلب، باب الفضاء. أورا الصـــغيرة في كل مكان، هنا، وهناك. أنت، أنا؟ فتحت الباب، أنـــا، الباب إلى الفضاء، الغيوم الشفافة في الباب تبشر بالشتاء أمام استدارة القمر. سُحب تمشي، قمر يمشي.. وهناك مقبرة الملوك. أول الـــبرد، تـــتحرك أجراس حطب أشواك الحائط التي تذكرني بأماكن ذقت فيها طعم الشاي بلا سُكّر. ثمة بعض الخرق المدلاة، وثمة.. حين تصاعد العواء من جهة ما تذكرت المرآة، غير ان العينين.. عينيه.. عـــيني الثور المستديرتين تحت تجاعيد القوة بين خِرقتين معلقتين على أسلاك الحظيرة، وقد نبتت له أجنحة من الغيم الواطئ. الباب ورائي خطـــوة واحـــدة. ادخـــل وصكّه بسرعة، غير أن التحديق اللامع صَمّغني، إذ يرفع رقبته بوداعة قاطعة مع البرق البعيد. ولا يترل أبي

Twitter: @ketab_n

هناك، وهذا ثوره، ثورنا جميعاً، يفكر أحياناً بالنطح، ولكنه جاء من الأدغـــال كما جئت أنا من البرّية، ولم يكن يشاطرني السكن سوى وجـــه شكســـبير وسرير ضائع في مساحة الغرفة، ومنضدة كتبتُ علـــيها: لا تتكئ. فأعود إلى نهاية الغرفة وهو يعود في المرآة، غابراً، وبعـــيداً، بعيداً جداً. تلمع عيناه كزجاجتين تحت ظل إشارة الفزع. انـــه يـــنظر إليّ ويحرك رقبته، بينما تمشي الغيوم على وبره الملصق بصـــمغ الأدغال. سيعود مرة أخيرة إلى البرّية، لأننا الآن، أنا وهو، نؤكد لبعضنا صداقة تعتمد على شدة الرغبة في التكبر على بعضنا..

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

— ١١ —

الـــريح.. تدخـــل الظواهر الطبيعية إلى قرية أورا. الغيم يلامس الحجـــر، وسط طقس يُذكرنا بطفولة الأرض حيث الدغل يحمي ما تـــبقى من سلالات بعض الحيوانات التي أوشكت على الانقراض: طائـــر الـــواق، وفصيلة نادرة من الثعالب السوداء، وذلك الديك الـــذي لا اسم له، ذو العرف الترابي المذهب يذكرنا بالحلاقين قبل البدء بالقص.. والنسور.. النسور الصلعاء.

الريح تقشر صدأ أسلاك النوافذ. مكان على الطرف، والطرف حافة، والحافة منحدر مفاجئ ينتهي بمنخفض عريض يضم الاهتزاز الرتيب للدغل وسط ضوء القمر أحياناً في أوقات تتعرض فيها أورا إلى قحـــط يأكل فيه الصيف الشتاء فتنتفي الحاجة إلى تقويم يراقب حركة الفصول، ويستغنى عن الساعة إذ يمكن الاستعاضة عنها بعصا واقفـــة لقياس طول الظل... ينتهي بمنخفض عريض يقود إلى لحظة تـــأمل على حافة النهر، هي في الأصل لحظة غباء تكشف عن تحجر البصـــر في نقطة ما من حركة الموج بمنزلة عيّنة للنهر كله ابتداءً من المصـــب، لأن المصـــب أقرب إلى مكان الوقفة التي تبعد عن المنبع مسافة تقدر بأربع ساعات من التخيّل.

Twitter: @ketab_n

المـــتأمل: هو الرجل المصاب بصدمة تاريخية تحوّلت إلى تجسيد: "الحقـــيقة الحيّة الوحيدة.. هي الموت..". مقابل ذلك فالحياة كفاح مستمر لكي لا نتحول إلى ملائكة.

الـــزمان مظـــلم في طرف أورا. ثمة رجل لا علاقة له بالأمر لأنه معـــتاد عـــلى الـــنوم بعد الغداء، وهي عادة اكتسبها أيام البطالة والجوع. اكتسبها منذ أربعين عاماً، يَعِد نفسه بالأمان. لكنها ليست ظلمة كاملة. يحاول أن يكون حُراً، ويعرف أنها حُرية غير متحررة.. يحاول هناك ظلام شفاف مما يجعل حريته أقل طالما أنه ما يزال يعتقد بخـــرافات قديمة يمارسها الآن أخوه الحداد: السحر، والقوة الخارقة، واللمســـة الـــتي تزيل وجع الخاصِرة. جسد الشبح الهلامي إذا ما اســـتثنى البعوض الذي يجعل الحياة أكثر واقعية. ولا حتى هذا. إنها وســـيلة للاعتراف ان هذه اللحظة خطوة من المشي نحو النهاية. انه هائج بعدما أكل مدقوق التمر بالسمسم. تذكر أن اسمه: آدم، وأنه أرمل منذ عشر سنوات.

كان لا بد أن يأتي إلى هذا العالم مسلحاً بيقين الانتباه والغفوة في آن واحد، انه حاضر غائب على الدوام لذلك فهو؛ موجود صلد شفاف، يقـــع في مـــنطقة شبه الظل بالنسبة للذين يعرفونه ولا يعرفونه. انه هنا وهـــناك، تلمســـه ولكـــنك لا تشعر به أبداً إلا حينما تحضره المشكلة لـــتجعله خشـــن الطبع تقريباً، يتمتع بهذا الوجود الحار من غير أن يعِد

Twitter: @ketab_n

أحداً بالذبح كما هي عادة أهل أورا الذين لا يفعلونها إلا نادراً.

المرأة التي قتلت زوجها، قطّعته إرباً إرباً بسكين البصل، ووضعت قطعه في كيس ثم ألقته في النهر، وأعلنت للجميع انها فعلت ذلك.

تزوجـــت تفاحة رجلاً من أورا، نمش الوجه يملك مضخة ماء، وأخـــذت سيارته، ومسدسه وصارت رجُلاً عليه.. شربت الخمر.. واخـــتارت مَـــن تشاء من الرجال الأقوياء، في أماسي القمر.. في البراري التي تحوّلت فيما بعد إلى مساكن لأسماك الكوسج.

أمـــا سارة فإن لحظة الانتظار، بالنسبة لها، تعادل حادثة عطش، لحظة طويلة في حساب من ينتظر النهاية، ولكنها، أخيراً، كفت عن الأمل، وقد علمها ديام أن تكون أنانية قدر ما تستطيع، فهي عندما أحبـــته، لـــيس لأجله أبداً بل لأجل نفسها، بمعنى أن تكون لصيقة بقـــناعة توصـــلت إليها معه، قناعة ليست نهائية. إضراب عن حياة الناس. كان يهطل، في مثل هذه اللحظات كغيمة فجائية فيضمها في قـــبر آشـــور الخالي بين يديه، ويقول انه سيتمزق بعد قليل. فكيف سينقضـــي النهار، محاطة بتعاويذ أبيها حتى وقت متأخر وهو يعالج مخبولاً لم يستطع أحد شفاءه، وقد تركها ديام كأحد الأشياء القابلة للكســـر، فقد أعدت نفسها له، وهي ما تزال تفعل ذلك، فرّشت أســـنانها لكي تبتسم له بوضوح، صفّفت شَعرها ليفرح بها، وهيأت مكانـــاً خالـــياً لتراه عبر طيّات الأراضي. فلم يحضر لها الكلمات.

Twitter: @ketab_n

سمعها مرهف نحو الشباك؛ أية خطوة تقول: جاء ديام.

تشـــعر بميل شديد إلى الذبول بعدما ابتعد عنها، في اللحظة التي أصبح لها بشكل كلي وكف عن أن يكون مشغولاً بثانويات الحياة. فراق أليم، لأنه كان ينقذها دائماً من التورط في حلم طويل، يخرجها مـــن السعي الدائم وراء الكآبة لكي يصور لها بأنها تفكر كما تريد، وبـــدأت تتقـــبل الشعور المخيف بمرور الوقت، تراها وقد تحولت، أخيراً، إلى نوازع مؤلمة تخص رغبة التدمير، والناس يتحدثون، فليس الحـــال ممكناً لامرأة كما هو ممكن لرجل. بينما كانوا يسخرون من فكرة التعب ويدفعونها إلى الهلاك.

تتلفت إلى جهات الفضاء وتعوي. وجود يصدمه وجود. صدى، بـــين مرور الدقائق، تتحول إلى شخوص متعددة، تتحول ضدها. ألم يلو أمعاءها. لقد صنع لها تخلخلاً في الزمن وأحيا مذكرات الجنون، فـــلا شفاء بدونه، وهو يقدم النسيان اللذيذ، يعصر عسل الشِعر في فمهـــا فتقول: تخلصتُ من الكآبة. وهو يقدم كل البدائل الضائعة ويصير حضوره عيداً لصفاء القلب.

Twitter: @ketab_n

ـــ ١٢ ـــ

الغضب. ليس التأمل، ولا الحكمة، ولا وليم بليك.. ولا الفضيحة. إنها حرب ابتدأت من لحظة صدمة الجمجمة. حيث سقط ديام، وظلت أفكاره القديمة على السطح. لم تكن أفكاره، كانت مستعارة ومتدنية في نوعيتها. وكانت الطفولة هي الأسئلة الأولى الوحيدة الممكنة التي تشير إلى انه يفكر، ولكنه حين كبر امتلأ بالقناعات فلم يعرف شيئاً، غير أن لـــه اسمـــاً.. ولـــيس له سلطة على الذات أبداً. تروح وتجيء في ركام التشوش ونتف الذكريات، والمحاولات المستمرة للاستقامة. الغضب هو التفســـير الوحـــيد للتقدم خطوة واحدة ممكنة ومجدية في الحياة. عودته آنـــذاك إلى أورا، عـــودة خائبة وقد تحول إلى لوحة إعلانات: شارات وآثـــار تربت على الكتف، وصدى كلمات تشجيع لا تعني أكثر من الدفـــع إلى الحافة، حيث كان المستنقع يتسع ويحيط بكل شيء. شكل الحرف، أو شكل حركة الضجر، أو اتباع وسيلة مضيعة بهدف القضاء على الضياع، وكل ذلك جزء من إمكانية أن يوجد، وأن يكون له اسم عنوة في التاريخ. منذ لحظات الهروب من المدرسة نحو حافة النهر هناك عين الشمس، امتزاج الضوء بالماء. هناك..

يشعر بأنه قد سقط من سطح المعبد الآشوري، زاوية التفاف النهر

Twitter: @ketab_n

كحـــرف (هـــــ) الذي يحضن الغابة. المسافة كانت شاسعة بقدر ارتفاع آشور في درجات المجد.. ترك اسمه في مخلفات الطين، وكانت الأرض مغـــرية والهـــواء لا يسع جسده، بعد تجربة السحر الفاشل.. وسقط.

الســـقطة الـــتي أعقبها نسيان، الفواق، البداية، نسيان التاريخ كوقائع، حياة التاريخ كوقائع.. حملته يد جبارة من الوحل.. وأعطته أورا بين يديه مهذبة وطائعة، صارت أورا أحد أعضاء بدنه.. ولكنه حين حاول في النهار أن يجد المكان ــ مكان البئر ــ ثانية؛ فشل.. حاول عدة مرات غير أنه خاب.

أولـــيفر يعـــتقد بأنـــه كان رجلاً ذكياً.. أما الآن؟. المطر فوق قطعة الكـــارتون، وصوت البرق في مكثفات أجهزة الراديو (صوت ساعة بغ بـــن.. بغ.. بن) صوت تلك الساعة اللعينة. (صوت بغ بن هناك، يشد خطى المسرع في الزحام، وينفجر كفقاعات تزيح الضباب.. تزيح. وتنمو الشـــقائق خلـــف واجهـــات الزجاج. كلاب السيدات. المتأخرون عن الـــدوام. المسنون الذين يعيدون بعض شبابهم بممارسة الركض الصباحي. تـــنفس السيارات في العاصمة القديمة. انتظار رسائل هربرت من الشرق. كـــان متجهاً بعكس الموجة البشرية نحو أحد المتاحف، وقد عكف على دراســـة الأزياء الآشورية بحكم ولعه فضلاً عن التخصص. وتطور الأمر بعـــد ذلـــك إلى ما يشبه الجنون، ولم يفقد سحره ووسامته، مع انه أهمل

Twitter: @ketab_n

العـــناية بمظهره.. وكانت إيفيلين هناك..). لا فائدة. لا يستطيع أن ينسى مـــنظر الـــنعجة، بقايـــا الـــنعجة بعد سحب الحبل. ظلام كثيف وسط الخرائـــب. حبل مغمس بالدم. أمعاء مشرشَبة.. وبقايا صوف. فما الذي حدث بالضبط؟. أراد أن يشرح لديام خصائص لعنة الحضارات؛ فما أن تدخُـــل الهرم المصري، مثلاً، حتى تصاب بلوثة أو تقضي بقية أيامك في المصـــح. الشـــيء نفسه بالنسبة للثور المجنح. والحارس يشخر في أعماق المغـــارة منـــتظراً هذه القرابين. انه لم يذق منذ زمن طويل طعم الدم. هل أنـــت خـــائف يا ديام؟ عليّنا أن نجرب مرة أخرى. ولكنني أهتز كحبة الصافِرة كما ترى، قل لي؛ لا تخف يا مستر. دعني اشرح لك، إن كنت تـــثق بخبرتي. لا بد من إرضاء هذه الآلهة السفلى لكي تسمح لنا باستعارة لـــوح من المكتبة. بالعكس. أنت لا تخاف أبداً. هل أنت خائف مثلي يا ديـــام؟. كانت هذه الجملة تتحول إلى أشياء في غرفة النوم، وقد صار نهباً للقلق. ينتظر رجفة مفزعة، مخلباً، ويستهلك السجائر. فعندما يقلق، عدا هذه المرة، تكون ذاكرته بلا معنى. يضيء وينطفئ كأسنان الزنوج. يحاول إغـــراء المستقبل ليعرف. يحتال على نفسه. ويدور حول فضاء ممغنط من توابعه الكابوسية، فيمد ذراعه إلى الكأس، ويعرف انه يمارس الابتزاز ضد نفســـه، وهو يرى وقائع الخيانة اليومية؛ خيانة الأشجار الخادعة للبصر، خيانة بذور الباقلاء، فضلاً عن خيانة الجسد الذي يُجنّ باللمس. وعندما تكـــون ثمـــة فجـــوة فيه تحتاج إلى مزيد من الشبع فإنه يجلد نفسه بحمى

Twitter: @ketab_n

الأعصاب، ويحجر رئتيه بوسخ التبغ.

حاول أن يقترب من إيفيلين، لأنه يعرف لمسة المرأة لهامة الخائف. فرمته في الصدمة وقيامة الانتظار لأنها لم تتحرك على أثر لمسة خفيفة، ثم أخـــرى واخـــزة. يكاد يبكي، وقد كانت النعاج المُقَطّعة تلاحقه حـــول الســـيارة وهو يقودها بجنون نحو البيت. فكيف ذهب ديام ماشـــياً في المطر؟. لحظة الشدة. لا تساعده الأفكار، فمن أين يأتي بفكرة تعلو على التجربة؟.

هلـــك مرة أخرى، في أوراق المشاريع ووخزات الوحدة. يشتهي الآن أن يتـــبادل بعض العضّات معها. فراغ يقطعه نباح كلب يدافع عن شيء ما.. وقطعة الكارتون؟. فلا يسمع فيها صوتاً مشجعاً، ولا نأمـــة، ولا عاطفة تحث على النوم. وحيد محاط بتراصّ الحصى والقعر المستدق للمغامرة التي تحولت إلى ملجأ للرعاة أثناء المطر.. على قطعة الكـــارتون. قـــال: إن الإبداع.. آه. الإبداع هو مشاعر النصر على العادة. لم يذهب الخوف. وقال: إن الفرق بين الحصار والإمكان؛ ان كـــل شيء ممكن يحتاج إلى جهد.. وهي الطريقة المثلى للخروج من الحصـــار.. فلم يذهب الخوف. وقال: ان كل شيء يكون مزيفاً حين يخرج عن حسابات القدرة... لا جدوى. لا جدوى..

كـــان وجهـــه قريباً من الحائط، يشعر ببعض البرد. يكتشف انه أضـــاع وقته في محاولات الخلاص من الخسارة.. فمازالت السيارة

Twitter: @ketab_n

تحاول التخلص من ورطة الغوص.

ثمـــة لافتة تعلن عن (أليوت):" نحن الرجال المجوّفون....". تُضاء بضـــربات البرق لأنها منسوجة بخيوط الذهب. بين لحظة وأخرى. ينطلق نباح، بين لحظة وأخرى.. ما أصعب ذلك. قال: إننا محكومون بـــنظام العـــادة، وحركة الأجرام، ومواسم تكاثر الديدان، وأبراج الحـــظ، وأخطاء النسيان بالخمر.. وأخطاء الصحو من الخمر، فلم يذهب الخوف. يحاول أن ينام فلا يستطيع. يتمنى.. يا إيفيلين.

لقـــد فـــات الأوان. هكذا دائماً يفوت الأوان. (البرد في لندن) الـــبرد هنا في أعماق المغارة، فلا يصده نسيج ولا مدفأة. (انه يزداد ضـــراوة حين تكاد الشوارع أن تكون خالية من البشر، بعدما تعلن بـــغ بن عن اقتراب زوال الليل.. لكن البعض يلتجئ إلى الحدائق، وقـــد ذاب الغبار في الندى. العشب. الديدان الصغيرة التي تكافح سمـــوم المختبرات ومسامير الأحذية الرياضية). يشعر انه يختنق (فلا يـــتذكر بعدهـــا أبراج الكاتدرائيات، وجلسات الأفيون في مقاهي سوهو، ولا رائحة الإسفلت بعد الغسيل. ولا يتذكر بالضبط ما كان عليه شكل جسده وذوقه في اختيار الملابس. اقتنع أخيراً ـــ مرة أراد أن يصمم ـــ، أهدت له إيفيلين ثوباً مصمماً على الطريقة الآشورية. فأنت تحب هذا يا حبيبي. وخرج من الحمّام بعدما اكتشف انه ذَكر. أنـــت تحـــب هذا. ذكرى الاتصال الأول بالجسد المغاير. واقترب.

Twitter: @ketab_n

ألصـــق جبهـــته بيديها الدافئتين الملقاتين أمامه على سطح المنضدة، وشـــعر انها تريد أن تبكي، بينما تراقب آثار نزهة المشط في شَعره، وتقـــول: ما أسخنك يا أوليفي. كان ساخناً، نعم. كانت ساخنة.. فـــنهض خلال ضعفه مطوقاً وجهها. وحلم برحلة إلى الشرق ذي المـــذاق الفلفلي ــ إيفيلين وأنا ــ الشرق المتوحش..) الشرق مرة أخرى.. الشرق. الشرق. الشرق.. كفى..

عـــندما أرسلت النعجة الثانية، كان إله حماية الكنوز قد استيقظ نهائـــياً، وتلولب الظلام حول محور ضوء المصباح، والفضاء مكدر ببـــيض الأنوفلـــس. فدخّن كبعض الأدباء سيجارتين معاً، إحداهما صـــورة في النظارة. ووقع مرة أخرى في فخ الإغماء فلا يقدر الحالم عـــلى الـــركض تحت اللحاف لأنه مربوط بنقوش الشرشف. لعبة. بـــالعكس إنهـــا لعـــبة. أعـــطِ هذا المسدس للطفل ــ أعطِ القلم للمجـــنون.. سترى. أربط نعجة بحبل طويل وأنزلها في قوقعة جب المعـــبد ثم اسحبها. كانت النعجة الثانية سليمة، وعليك أن تستعد للنزول يا ديام، لأن الحارس اكتفى بنعجة ونصف.

يتجعد وجه الرجل كعلبة مُداسة، هل جُننت يا مستر؟ لم لا تنزل أنـــت؟.(كانت إيفيلين هناك) عارية مبلولة تحت الغطاء. فلماذا قال ديام انه لم يجد شيئاً يا مستر؟. (كانت تشرف على إحصاء صناديق الأدوية الخاصة بوكالة الغوث الدولية، والتي ستُشحن بالباخرة إلى

Twitter: @ketab_n

إحـــدى الدول الفقيرة. إيفيلين التي أخذت اسمه فيما بعد، فصارت تدعى بالسيدة أوليفر. جمعتهما لحظة فوران بسبب تشابه القراءات حول الشرق المتوحش).

كـــان هناك، عندما تجعد وجهه كعلبة مُداسة. وقال له: هل أنت مســـتعد يـــا ديام؟ لم يكن خائفاً لأنه عاصر بعض تلك الصور على مـــدى أعـــوام، وهو ابن حفار الآثار آدم، بينما يهتز أوليفر كحَبّة الصافرة وهو يأمره بالنزول. أراد أن يشهد تكوّن نوبة الجنون منذ بدايتها لأنه ظل يسأل حواسه عن سر اختفاء هربرت.

مدّ خطوة في المطر مترجلاً عن كتف المحاق، وقد أحيط في الحال بفضول الحشرات وهو يغلف نفسه ببعض الحِكَم.

سمـــع صوتاً من نفسه، صادراً عن حبة المخ، يقول: لا تخف، فنزل بشـــبات دافعـــاً حافتي البئر، وقد تفرع جذعه إلى فرعين ينموان نحو الأسفل باضطراد. كان يتوجس غدر الأفاعي المعمرة ذات الأجراس، بين الشقوق، وقد رأى ثيابها الفصلية معلقة بمشاجب بيوت الزنابير، تلـــتمع بسبب زيت التكاثر ومخلفات مخاط العناكب. رائحة تذكره بخزانات ملابس العجائز عندما كان يفتح الأبواب بعد موتهن. رائحة بدن ميت منمّش بالذباب، رائحة الماضي البعيد كبعد الخلود.

دفـــع أصابع قدميه بنقلات الهبوط المتدرج نحو قاع العالم. كان حـــذره يـــزداد كلما هبط درجة جديدة، غير ان صوتاً من نفسه

Twitter: @ketab_n

يُحدّث أن لا شيء فامضِ. وصوت آخر كأنين امرأة مريضة يعرّفه باسمه: ديام. ديام. مرتان، ثلاث مرات. همس لا يمكن أن يحتمل لأنه من الخفوت والجفاف يكاد أن لا يُسمع.. ديام.

يـــتوقف في المطر (ليشهد الزوال الذي كان فكرة غير مؤكّدة، ترتج في رأسه ارتجاج الشخاطة لحظة موت الأعزاء، فيرى الارتجاف الحرِف للأرض ــ حين تتناول قدح الشاي ــ الشاي الذي أمسى سَلوى المسنين. الشاي والتبغ..) الأرض هنا و (هناك)، بمنزلة رغيف الشعير، وليس كصورة الكرة في صفحات دفاتر الأولاد. توقف ــ هناك ــ حين سمع اسمه منطوقاً بتأنيب، بحقد.. وبحفاوة أحياناً، كأنما يســـمعه لأول مـــرة. يـــندهش. كيف لا يدري أن له هذا الاسم الجمـــيل..!!. يـــنادي نفسه: ديام.. ديام. ولا يصدق. ينادي مرة أخرى: ديّ آم. فيجيبه الصوت الجاف بطريقة نطق مخالفة.

وفي قصـــبة البئر، وجّه المصباح إلى الأعلى، ثم إلى الأسفل، فكان الاتجاهـــان متشابهين. اختلط الأمر. الصعود هنا، النزول هنا.. كلا.. بـــالعكس. النزول من هناك..... ، ..... لكنه استدل أخيراً بصورة قدميه، وبطريقة الدوران اللولبي لدم النعجتين حيث توزعت القطرات عـــلى محـــيط البئر بانتظام، كذلك كان الحبل يفك لفّته عندما كان حُراً.. وهبط بسرعة، غارزاً المصباح في حزامه متجاهلاً نداء الآخر. علّـــة الآخر ــ الآخر الموت. نسيان على طرف الجسر. الآخر، سم

Twitter: @ketab_n

طيـــب الطعم. منصتاً إلى نداء نفسه، وقد ترك أوليفر عرضة لشكوك الســـطح وهـــوس الخرائـــب،(يستمع وحيداً إلى خربشة البرق في مكثفات الراديو) ولم يكن إلا قطعة باردة من عراء السطح.. لم يكن إلا آخـــر. انه أحد الآخرين، أغلب الظن. حظاً سعيداً، في الأسفل. عـــندما مد إحدى ساقيه نحو درجة أخرى لامست أرض القعر، فنزل عـــلى بعض الصخور المنقوشة بمنزلة سلّم. انتزع المصباح من حزامه وصوّبه نحو جهة الخطر... فكانت غرفة الملكة.

كـــان يتمنى أن تزداد سعة الضوء، وهو ينقله في المكان ويفرك عينـــيه. تنفـــتح دهاليز بمنزلة أبواب تساقط منها الجص. ممر المثوى الأخـــير للبشر الذين أضاعوا حتفهم. ممر معصرة العطور. ممر غرفة الزيـــنة. مدخل خزائن الملك.. مدخل آخر يؤدي إلى قاعة الرقص. ممرات مغلقة بأبواب صخرية كالتي شاهدها على فوهة البئر، شبيهة بالقمـــر في وضع المحاق. واتسع المكان ثم ضاق تبعاً لأمنيات قديمة وأمراض، تبعاً للون وردة الحصاد، (بعض من تلك الأيام التي يختلط فـــيها غناء الإنسان بصوت القُبرات.. والإبريق في الكدس) فتبدو الجـــدران، إذا كانـــت جدراناً حقيقية، واقفة تحت طبقات المسح الآثـــاري، والـــرطوبة التي تنعش الجذور ــ بعيداً عن الرطوبة التي تنعش الجذور ــ كانت قوية تتحمل صدمة الغش. وكانت بين بين، كأنها لم تكن إلا حلماً، أو درجة لبعض الحمّامات النادرة.

Twitter: @ketab_n

تبدو الجدران أقرب مما هي عليه في وضعها الحالي. أفضل مما كان لم يكن. لم تزل نظيفة تحت التراب. هنا جلس الملك، وجلست الملكة أيضاً. منضدة من المرمر. مقاعد تحتفظ بجلالها حتى بعدما باضت عليها الحشرات. ألواح مصنوعة بعناية، يسند بعضها بعضاً في جيوب جدارية أُعدت لهذا الغرض. يتناول أحدها، فيشعر (بسلام طائر الخطّاف على سلك الكهرباء).. وهذا ما يريده أوليفر. يريد لوحاً من المكتبة، لكي يريد المكتبة كلها.. لكي ينجح. اللوح مخطط بإشارات متباينة الطول والاتجاه، ورقة من كتاب الحساب. ورقة من سجل منجزات الملك. خارطة لتوزيع الآلهة في قبة السماء. سيرة البطل ذي القرنين.. ورمحه مسند إلى العربة.

اسمك ديام. هل رأيت مثل هذا.. وهل رأى مثله والدك منذ أربعين سنة بين الآثار؟. دار حول نفسه فاقداً الاتزان. ثم ضبط دورانه عائداً إلى الاتزان، منتبهاً إلى صوت قطرات ماء تسقط في أحد الدهاليز.. وأعاد اللوح إلى مكانه، مستحضراً قدرته التي اكتسبها من أبيه ــ في مسابقات قطع النَفَس تحت الماء، وأمر قلبه بالتوقف دقّتين،،،، فنزلت القطرة الثانية. إنها تنزل في هذا الدهليز. بل تنزل في هذا.. الآخر. الآخر. الآخر؟؟.. أضاعه الصدى ووزّعه، وصارت القطرة قطرات. صوت أول صرخة الوليد. صوت الوعد بالرزق، والذهب المائع فوق الرغيف.. إنها تنزل قلبَ الثمرة في أول

Twitter: @ketab_n

النضج. انه لا يستطيع أن يغامر لأن حدسه يقول؛ إنها طريقة مغرية للدخول في ممرات المتاهة. (وهكذا ضاع هربرت..).

دار الضـــوء حول بعض الجِرار وحاويات العطور والمزاهر والصناديق التي تتدلى منها حليّ الذهب والأحجار الكريمة وقد هُيِّـــئت تواً للتطويق والتخصير والتحجيل، لأجل حضور أعياد يوم النصر على حافة دجلة. لم يـــلمس شيئاً عدا اللوح. كان الصوت الجاف منغماً بفعل سقوط قطرة الماء، يناديه: ديام. ديام. ولكنه يعرف هذا الإغراء، فينكره كما ينكر اسمه في لحظات الشعور بالذنب. وكان صدى ذلك الصوت يُحفّز الشَعر على الوقـــوف. أنـــزل الضوء على الأرض هذا دم.. دم النعجة. دم وأحشاء وصـــوف. آثـــار معركة وخطوط مخالب. رُسمت.. هناك، هناك، رسمت القطرات. إنها ما تزال دافئة، حمراء لم تتجمد بعد.. رسمت سلسلة انتثرت بعض حلقاتها على الحائط. من هنا. تتجه بشكل متعرج نحو دهاليز. هذا الدهلـــيز. هذا الباب. انه يؤدي إلى مكان مليء ـــ دارت في محجريهما دورة كاملة، دورة أحد الشهب الراجمة ـــ يؤدي إلى مكان مليء.. مليء بـــالوحوش. وتخشب جسده فلم يفلح في محاولة تذكر حِكمة معينة تعيد إليه بعض الهدوء،،، فسحب الحبل سحبتين، منتظراً مساعدة أوليفر.

في أثناء لحظة الصعود سقط عمود الضوء عفواً على إحدى جيوب العـــالم السفلي، حيث يدخل القمر تماماً في رحلة المحاق. وكان القمر هـــناك ينتظر دورة طلوعه بهلال صغير. إنها آخر صورة للنظر، حينما

Twitter: @ketab_n

يتمنى الرجل أن يموت في وقت القُبلة المُؤثرة،، ما تُمسكه شبكية العين لن يمحى أبداً، حيث تتحول الشبكية إلى لوح في المكتبة.

ان دورة القمـــر تشرح تبسيط رحلة الموت والحياة. (عندما استيقظ ديـــام بعـــد هزّة مقاومة السقوط. رأى الضوء يرفع غطاء غرفة النوم وينسكب في عينيه. كان ذلك في منتصف تشرين الثالث لأحد الأعوام الخالـــية من وقع الترتيب المنطقي لتوالي الأيام. كانت الشمس تهتز في الـــنهر تحت الصفصاف دون أن تفقد بعض حرارتها. وكلما أتيح له أن يـــنقل بصره إلى أحد الأشياء التي تؤكد انه استيقظ نهائياً، لأنه اكتشف فكـــرة الانزلاق عن الموت. واطل من شباك غرفة النوم فلم يرَ اهتزاز الأشجار، ولا حركة الدرب الأفعوانية، بل رأى صورة البيضة المرمرية محمـــية من خطر السقوط بفضل حلزون قضيب الشُباك. لم تكن صورة نعاســـية على أي حال) كما هي الآن. كانت اختراعاً صادراً عن حَبة المخ، حيث يمكنه أن يرى عبر الحَديدة ما وراءها.

حـــين أضاع الشعاع، توقف الوقت. بيضة أم جمجمة؟. لم تكن هذه الفجوة المضيئة قمراً. بل كانت بيضة كبيرة مغلفة بهلام المرمر كبعض أدوات زينة الملك. يتذكر انه رأى مثل هذه البيضة في شباك غرفة النوم، ولكنها كانت صغيرة قياساً إلى حجم هذه التي تكبرها بعدة أضعاف. كانت بيضة الحلم أو بيضة الشباك التي رآها مع أبيه بحجـــم البِـــنان، أما بيضة الـــ ..... فبحجم الجمجمة. بيضة أحد

Twitter: @ketab_n

الطيور التي عبرت محيط الأرض بقوة أجنحتها. بيضة لطائر الرّخ.

محاطة بجلال النقوش المكررة لسنبلة الشعير. تثبتت تلك الصورة في مؤخـــرة الـــرأس، تثبتـــت مرتين. بعد أن اجتاز مشاجب ثياب الأفاعي صاعداً نحو أوليفر.

لم يعد يتذكر ما رآه من كنوز لحظة الوقوف بين يدي المدير وهو يســـأله: ماذا وجدت؟ ولا يسأله عن ضناه. (كانت مضيئة، لو انه أطل منها لرأى ما لم ير رجال البلدان الباردة) غير انه اتفق مع نفسه عـــلى صـــحة التسمية: الرّخ. الرّخ، نشر ظله، فيما مضى، دارت عيـــناه، فيما مضى، حول الرجل الذي قال: يا شعبي العزيز. وكان يعـــني ما قاله. عيناه اللتان تفوقان في إبصارهما قوة أحسن المناظير. نشر ظله فوق المملكة. طائر الرخ. لقد بدأ المطر فهدأت العاصفة.

ما زال المطر يسقط فوق قطعة الكارتون.. يا إيفيلين. كان وجه ديام محقوناً بالرضا يا إيفيلين، وقد زالت أغلب التجاعيد عن بشرته السمراء الدهنية، أما بصره فكان شارداً في توهج سلك المصباح. لم يكـــن راضياً من قبل كما هو في تلك اللحظة، فلماذا قال: لم أجد شـــيئاً يا مستر؟. وأفرد راحتيه علامة الأسف.. ومضى في المطر يا إيفـــيلين. فقلـــت له: اركب في السيارة، فلم يركب. وصحت به: إرجع يا ديام.. إرجع. لأنني كنت خائفاً. وتابعته بضوء المصباح حتى غاص في المنحدر.. فلماذا تركني وحدي، وأنتِ لا تتحدثين؟.

Twitter: @ketab_n

(في يـــوم من الأيام..) إنها تمطر على باب البيت، فلا يمكن سماع شـــيء آخـــر عدا.. الفضاء خلف الباب، الشجرة تغسل أوراقها بأوراقهـــا، لإزالـــة قشور الذرق.. ويتحول الحك إلى تهديد. فمن يطرق الباب يا ربي؟.

قال ديام: سأكسره.

قالت ديامة: انتظر يا عزيزي..

قال ديام: فلماذا إذن؟.

وفتحت الباب وقالت: ماذا حلّ بعربتك؟ لا بد أنك عانيت من هَور الوحوش. وكانت عيناها تسبحان في رغوة الحلم. فسألها بهدوء مَن فقد الذاكرة: إني جائع يا ديامة (فأين باب الحمّام؟).

وقالت: كيف يكون الطعام في الحمّام؟ انه في العلبة.

قال: أحضريها.

فأتـــت بهـــا، وهو واقف لا يستطيع الجلوس على البساط لأنه سيمحو النقوش ببلل ثيابه. كانت خصل شَعره تسيل، وكان واجبه أن يمطـــر داخـــل الغرفة. أمسك العلبة كما يُمسك كتاباً مقدساً، ولكـــن بـــبرود، فانـــتقل بياض المرمر إلى يديه وقد مدهما بأقصى إمكانيات الطول.. ثم صعد البياض إلى وجهه.

قالت: أنظر.. أنظر إلى الوحوش!!.

وقال: إني أراها حتى لو لم أنظر...

Twitter: @ketab_n

ـــ ١٣ ـــ

فتح ديام باب الحديقة في بدايات الفجر فاهتز سياج الآس بجهود نسمة منعشة على أثر انقطاع المطر.

كانت السقوف المائلة الخاصة ببيت المدير قد أنهت نفض حمولتها من الماء قبل غيرها من سقوف الطين، فيما ظلت الحواف الشبيهة بحاجِب العروس تدفع بعض القطرات إلى الممشى وقد امتصت فضة الفجر، لحظة السقوط ثم الانتشار على الكونكريت.

ورفرفت بعض العصافير قريباً من أعشاشها بحركات أول التمارين لجمع الرزق.(اعتقد انه لمح في طرف الحديقة شيئاً ما، قائماً إلى جوار نافورة الطفل الجبسي) حيث ذابت حواف التمثال الحادة وأصبح مجرداً من معنى البراءة كحارس شبحي يقلب توازن الحديقة.

قال: إنه سيهوي بعد قليل (وعلم انه ما يزال في مدخل الحديقة بسبب رائحة سياج الآس، وانه يحتاج إلى فكرة وجهد لكي يحس بالوصول السريع إلى باب المنزل. سوف يفرك الأكرة النحاسية، ثم يبصر نفسه في مرآة المدخل..) سوف يطرق الباب قبل ذلك ويسمع صوت القبقاب الخشبي، بعدما يباعد زمن الطرقات لئلا يلتبس بين صوت طرقاته وصوت نقر القبقاب، فقد يكون الصوت صادراً من تحت يده فقط.

Twitter: @ketab_n

حين مد كفه نحو خشب الباب ليطرق، صدرت عنه التفاتة سريعة نحـو تمـثال النافورة، وقال: سيستيقظ بعد قليل، فنقله دافع التأكد الحدسي نحو حافة الحديقة. حافة العشب المذبوح بحافة الكونكريت. ولم تـزل ذراعـه مصلوبة، بعد أن مشى، لأجل الطرق.. فاستخدم ذراعه الأخرى لإنزالها وهو يتحسس قبضة الخنجر في حزامه.

كان يقف هناك (في يوم من الأيام). يبدو الفضاء أمامه ــ الفضاء المضيء أصلاً ــ كنسيج متباعد لعباءة فضيّة. يرى الأغصان قرب الحائط دانية من الأرض، تلم أوراقها الملعقية ثقل القطرات، تلامس الأرض في بعـض المناطق، تلين وتنفتح كالحظ السيئ والسمعة التي صعدت مع صعود رشق الطين على السور، في بعض المناطق.. سمعة تخص حادثة الليل، فماذا سيحكي للغُربان؟. (يسمع عن بعد سحيق صـوت رجل يتلو القرآن بطريقة ذات نبرات حزينة) وهو ما يزال يـراهن نفسـه على سقوط التمثال الذي لا يكاد يُرى حتى درجة الشك بقوة البصر ــ والبصر يصعد ابتداءً من المنطقة التي يفترض انهـا قاعدة التمثال، مروراً بالجزء العاري، لأنه طفل لا يخضع كلياً لقواعـد الأخلاق، كما تخضع السيدة تحت القطرات لتجريح متعة البصر (والفقرات أسطر جريدة..)..

إنهـا المـراجعة الثانية في أثناء الليل. سيسقط التمثال حتماً. عندما قدمت له ديامة علبة المرمر كان معلقاً كحادثة في أعماق بئر الكنوز فلم

Twitter: @ketab_n

يستهن بالعلبة حقيقة، غير أن الذي رآه هناك كان أهم بكثير، لا سيما بيضة الرخ التي سبق أن رآها في أحد أحلامه محمية من خطر السقوط. لقد تحسس فتنة النقوش، والفضاء ممطر، حيث تجري الوحوش الرشيقة حـــول العربة بلا أي عائق. ولم تكن ديامة إلا نقشاً بين الآثاث. كانت تـــريد أن تذهب مع الرجل صاحب السوط. فلماذا تذهب وتتركه بلا عشاء؟ ألم يمنعها من الخروج مخافة جرح الأعين لها؟. لا بد أن تسقط في الليل. لا بد أن يسقط هذا الطبشور. سيسقط بعد قليل، في الليل، جاء إلى أولـــيفر ولمـــا يزل مبللاً. كان مائعاً بشكل خاص، أما ساقه فقوية. ســـاقه الأخـــرى.. حيث يرتجف بعد الحادثة ليخبر أوليفر بإخلاص ـــ لـــيس بإخلاص تام ـــ بلا إخلاص معروف.. لأجل. ليخبره عن العلبة الـــتي وجدهـــا ديامة في تراب التنور، لكي يصرف نظر المستشرق عن الـــتفكير بإعـــادة تجربة البئر.. حتى تفقس البيضة. فوجده يرتجف بعد الحادثـــة ليخبره عن الكوابيس قرب الموقد. يقول: لقد وجدت نفسي مقتولاً يا ديام. حدث أن وجد نفسه مقتولاً بسهم اخترق مانع الذباب واستقر في قلبه. توجه بجثمانه نحو زوايا البيت ملتمساً طريقه بين أدوات القهـــوة، ولم ينس كيف قضى الصباح الذي كان نظيفاً بفضل أشعة ما بعد المطر، يسأل المارة وكبار العشيرة أن يؤثروا بالكلام والتهديد على البِنت لكي تعطيه علبة المرمر التي لم ير أجمل منها طول سنوات البحث. لم ير أجمل من البِنت، من العلبة. إحداهما: البِنت، أو ، العلبة.

Twitter: @ketab_n

لقد وجد نفسه مقتولاً ــ لم يجد نفسه مقتولاً حقيقة ــ ولكنه ميّت بفعــل القتل، على ضوء ومضة البرق، حيث رأى في آخر الليل شبح شخص في النافذة، بينما كان يعد ابتداءً من الألف عداً تنازلياً ليسهل عليه النوم، حين بشره الشبح بالسهم المهدى إلى مجاري القلب إن لم يــرحل، فأيقن أنه جاد فيما يقول، لذا تصرف في الصباح كشخص ميــت، وكان يكفر بصوت مرتفع.. أكل الكعكة وهو ميت. ارتدى قمــيص الإعلانــات وهو ميت، ثم حمل جثته بعد الحلاقة وتوجه إلى بعــض وجهاء العشيرة لكي يحموه من نفسه لأنه كان يكفر بصوت مــرتفع مستعيضــاً بذلــك عن عادة النزهة لأجل لفت النظر. لقد اكتشف، هو، أوليفر، ان كل فرد هنا، بما فيهم ديام، مدفوع بسحر غريب نحو لذة التأويل والحكي، وان كل شيء موكول إلى خطر قادم شــبيه بــالقَدر الذي لا محيد عنه، لذا فقد ساق نفسه بلا تفكير إلى الباب، فمن الذي أراد طرق الباب؟ ليتأكد ثلاث مرات انه قد أحكم الإغلاق، ويتخلى، كقرار أخير، عن عادة النزهة اليومية تحت أشجار التوت بالسروال الأبيض ذي الجيوب والعلامات النحاسية وشعارات شركات التبغ معتبراً نفسه إشارة بيضاء شاذة وسط خشونة الدغل، مبــتعداً عن نحنوية القوم بأقصى ما يسمح له الضمير بكل ما فيه من خزين حلمي منذ عصر البخار وحملات إبادة السَحَرة.

كان أوليفر متأكداً قد سأله ياحاح: ألم تجد شيئاً في البئر؟. عندما زاره

Twitter: @ketab_n

في الليل قبل أن يستبدل ملابسه المنقوعة، ليخبره عن العلبة التي وجدها ديامة في تراب التنور. وقد فكر ديام آنذاك بأهمية البئر وصناديق زينة الملكة وألواح الكتابة، أراد أن يلهيه بالعلبة التي لا تساوي شيئاً قياساً إلى الجلال المشرق في بيضة الرخ وصناديق زينة الملكة وألواح الكتابة، قبل أن يستبدل ملابسه المنقوعة ليخبره عن العلبة...

ولم يكن أوليفر متأكداً من صدق ديام حتى بعد أن قال له: أظن أنك لا تصدق. (كان ذلك في شهر تشرين الثالث في أحد الأعوام.. بعد منتصف الليل) وقد رجعا بطريقين مختلفين من عنف التجربة، فرجاه مرة أخرى أن يوضح له سر افتراس النعاج، وهو الذي فسر له الأمر بطريقة أدارت رأس الحفار: لقد ذهبت طعاماً لأحد الآلهة تحت الأرض.. ولكن.. كان متعلقاً بمعطف ديام، فقال له: إن الأمر بسيط جداً يا مستر؛ فلا إله تحت الأرض ولا حارس كنوز ولكن ــ سيسقط التمثال ــ وتعلق به أكثر طالباً إكمال الكلام، فقال: إن الأمر بسيط جداً يا مستر، لقد اكتشفت دهليزاً يربط قعر البئر بالوادي، فلا بد أن هذا الدهليز كان وكراً لذئب جائع، وان هذا الذئب قد شم رائحة النعاج.. وهكذا كان الأمر.

وتوقع ديام، كما توقع الحمار تمثال الطفل بعد قليل، انه سيكف عن الاهتزاز حين أوضح له الحقيقة ببساطة كما فكر بها، إذ انه لم ير الذئب، بل استدل بالحدس وآثار المخالب. ولكن المستر هوى

Twitter: @ketab_n

بوجهـــه إلى الأرض فـــلم يعد يحتمل. لقد أخطأ حدسه هذه المرة، فكـــيف توقـــع سقوط التمثال المثبت منذ سنوات طويلة هنا، متعة لأنظـــار المستشرقين الذين انتهوا واحداً بعد الآخر، وقد أحضروه ليذكرهم بمتنزهات بلدانهم.

حضر أوليفر بعدما استفاق من نوبة الإغماء ليرى العلبة، وهو يضع رأســـه طـــول مسافة الطريق تحت معطف ديام خوفاً من ظهور شبح النافذة في أثناء لحظة البرق، وكان ديام يضمه إليه بإحساس الأب الذي سيودع ابنه بعد قليل، وحين وصلا إلى هناك، تذكر انه يجب أن يكون متزناً. إذ وقع بصره على العلبة بين ديامة فقال: هذه لي. وهو يتوقع أن تصبح له بسهولة الجملة التي أطلقها، غير أنها تمسكت بعلبتها أكثر فلم تسمح له بتفحصها جيداً، مع ان السهر قد أرخى يديها، وفتت الحلم، بالـــرجل ذي اللحـــية الممشطة، قوة التمارين التي اكتسبتها من جهد الانحناء المستمر على التنظيف وسحب الدلو. كرر المحاولة: قلت يجب أن آخذهـــا.. يعني يجب. سأدفع لكِ خمسين، خمسمائة، ألفاً... وأمرها أخوها أن تأخذ النقود من المستر ـــ ليس لأجل النقود ـــ ولو انها بدت كثيرة ومغرية، بل لأجل أن يصرف نظره عن بئر الكتر. ولم يكن يريد إجبار أخته أمام الغريب.

قائلاً: سيسقط التمثال بعد قليل. انه يتوضح شيئاً فشيئاً. حدث أن اختفـــت العلبة (اختفت) بعد جهود المحاولات الفاشلة من قبل

Twitter: @ketab_n

أوليفر. كانت ديامة تتنفس بصعوبة حين رجع أخوها من عند المستر ليكرر المحاولة، فوجدها مطروحة قرب الباب. تمسك طابوقة الباب، آثارها مسحوبة. خط بدنها، على العتبة. تقشرت أظافرها المدهونة بدم الكبد. في جهة معينة تزداد ثقلاً في لمسة الأوراق الملعقيّة قرب السور والطين يصعد كرذاذ إذا ما استثنى خدعة الخوف من الشبح لأجل مخالفة الطريق والعودة من طريق آخر محاطاً بالغدر بعد الوفاء ودقة الحفر مخافة كسر العلبة التي حرص ألاّ يراها أحد نظراً لانتهاء تجربة شرب الماء من الجدول قرب فم النعجة. مسحوبة. انها معركة التشبث، والاستعاضة عن العلبة بالطابوقة.. فأين الخنجر يا ديامة؟.

كانت السماء قد عرّت بعض نجومها، والفضاء مليء بسواد: ماذا يقول للناس ــ حين فتح باب الحديقة في بدايات الفجر اهتز سياج الآس بجهود نسمة منعشة...

التفت ديام مرة أخرى قاصداً طرق الباب. قال: انه غريب. وسمع صوت انهيار.. فاهتز سياج الآس. انهيار التمثال في اللحظة التي طرق فيها أول طرقة على الباب.. انتثر الغبار الطباشيري كغيوم بيضاء فوق عشب الحديقة، فأغمد خنجره وأعاده إلى حزامه.

اعتقَدَ انه رأى بطرف الحديقة شخصاً ما قائماً هناك إلى جانب المكان الذي كان فيه التمثال. لقد صارت الرؤيا واضحة تماماً.. الآن، وازدادت الأغصان ثقلاً لأنها امتصت غبار الانهيار.

Twitter: @ketab_n

في البدء سمع أنيناً خافتاً يأتي من زاوية الحديقة، ثم ارتفع الأنين إلى إنذار حاد.

كانـــت عيناه تلمعان في غبار الطبشور كعيني النعجة تماماً، وقد أضاع نظاراته في مكان ما، أما شَعره فقد انتفض كحزمة القش. قال ديام: مَن أنت؟.

ورأى أولـــيفر يزحف بسرواله الأبيض ذي العلامات النحاسية، ويبتسم بوداعة، ثم ينحني ليقطف العشب بأسنانه...

شباط ١٩٨٧

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

هذه هي الرواية الثانية للكاتب العراقي الراحل حسن مطلك، وهي لا تقل أهمية عن روايته الأولى الشهيرة (دابادا) التي شكلت حدثاً بارزاً وهاماً في الأدب العراقي منذ صدورها سنة ١٩٨٨ لما تميزت به من فرادة وتحديث في مستويات السرد واللغة والتقنية والموضوع.

وتأتي الآن (قُوة الضحك في أُورا)، التي جمعها شقيقه محسن مطلك الرملي، من بين الأوراق التي تركها الراحل، متبعاً إشارات ومخططات كان المؤلف يضعها أثناء إعاداته المتكررة لكتابتها.

إن هذه الرواية تؤكد مرة أخرى، عمق وقيمة مشروع حسن مطلك وأهميته كروائي متميز، فمن بين الكثير مما تزخر به الرواية نجد رؤية مختلفة عن السائد في تناول علاقة الشرق والغرب، حيث يطرح حسن مطلك هذه العلاقة على أرضية البعدين الإنساني والحضاري، موحداً بين الأزمنة، متخذاً من أرض عاصمة الآشوريين مكاناً لحركة شخوصه، وقد كتبها مدفوعاً بعذابه لما يحدث لها، قائلاً:س هناك ذكرى بعيدة، منذ أن كنتُ طالباً في الصف الثاني الابتدائي؛ شهدتُ رجلاً وجد صندوقاً مرمرياً جميلاً وباعه بأربعة دنانير إلى رجل إنكليزي.. آنذاك تعذبتُ.. وما زلتُ أتعذب".